السيد جمال الدين الأفغاني

اجتهاداته وآراؤه

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات
إسلامية
13

السيد جمال الدين الأفغاني

اجتهاداته وآراؤه

الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي

وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية
بجامعة دمشق

دار المكتبي

الطبعة الأولى
1418 هـ - 1998 م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، ذي الفضل والإنعام والإحسان ، والطول والإكرام ، والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوث رحمة للعالمين ، الذي أضاء الخافقين بهديه ورسالته ، فكان إمام المتقين ، وأسوة العالمين ، وقدوة المؤمنين .

وبعد :

فقد أكمل الله تعالى الإسلام ، ورضيه للناس ديناً ، وختم النبوة برسالة محمد ﷺ ، وانقطع وحي السماء ، وجعل هذا الدين خاتم الشرائع والأديان ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ، وسخر العلماء في كل عصر لحمله ، والتذكير به ، والدعوة إليه ، وإزالة الغواشي التي تلحق به ، وإماطة الأذى الذي يعلق به من الأعداء ، فكان علماء المسلمين مشاعل النور تضيء للناس طريق الخير والصلاح ، والتقدم والرقي ،

ويشع نورهم على امتداد الأجيال والعصور ، وهم الموئل في الملمات ، والمرجع في المشكلات ، والمورد للارتواء ، والحجة على العباد ، قال رسول الله ﷺ : « العلماءُ ورثةُ الأنبياء »[1] ، وقال : « علماءُ أمتي كأنبياءِ بني إسرائيلَ »[2] .

وقد امتلأت صفحات التاريخ الإسلامي بالعلماء الأعلام الذين حملوا الإسلام ، وبلغوه للناس ، ونفوا عنه الخبائث ، وخلصوه من الشوائب التي تلحق به ، والأدران التي تلصق بجوانبه ، والشبهات التي تثار حوله ، والباطل الذي يقذف في طريقه ، والبدع والانحرافات التي تشوه جوهره ومعدنه ، أو تحاول أن تقلب قيمه ومبادئه ، وتمنع الاستغلال به ،

---

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي (٧/ ٤٥١) والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي (نزهة المتقين بشرح رياض الصالحين ٢/ ٩٥٥ ، الترغيب والترهيب ١/ ٩٤ ، الفتح الكبير ٣/ ١٩٩) .

(٢) هذا الحديث جزم بعض العلماء برفعه ، وأخذ آخرون بمعناه ، وأنكره بعضهم ، لكن قال العجلوني : « وقد يؤيده أنه الواقع » (كشف الخفا ٢/ ٨٣) ومهما قيل في صحته فإن معناه صحيح .

والمتاجرة فيه ، تحقيقاً لقوله ﷺ : « لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظَاهِرين على الحقِّ ، وفي رواية : قائمةٌ بأمر الله ، لا يضرُّهم من خَذَلهم ، ولا من خالَفَهم حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهمْ ظاهرونَ على النّاس »[1] .

وكلما اشتد الظلام احتاج الناس إلى النور والضياء ، ومتى سادت عتمة الليل تأمل الناس الفجر القريب ، وقد وصل العالم الإسلامي في القرون الأخيرة ، بعد الألف الأولى من الهجرة ، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين ، إلى الدرك الأسفل من الجمود والتخلف ، والضياع والتشتت ، والانحراف والاختلاف في الداخل ، وتكالب على المسلمين الأعداء من كل صوب وحدب من الخارج ، حتى تخلَوْا عن حكم الله تعالى ، وركنوا الشريعة الغراء جانباً ، واحتل بلادَهم وأرضهم الكفار ، وأصبحوا لقمة سائغة في أيدي الأعداء ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

---

(١) هذا حديث صحيح ، وله روايات عدة ، رواه البخاري (٣/ ١١٣٤ ، ١٣٣١) ومسلم (١٣/ ٦٦) والحاكم في (المستدرك ٤/ ٤٤٩ ، ٤٥٠) ورواه الترمذي وابن ماجه ، عن معاوية وثوبان والمغيرة وعمر رضي الله عنهم .

ولكن رحمة الله تعالى على عباده ، وسنته في خلقه ، أن تجلت على الأمة بالعلماء العاملين ، والمفكرين المخلصين ، والدعاة المصلحين ، والقادة الأفذاذ ، ليوقظوا الأمة من رقادها ، ويبثوا فيها روح الإسلام ، ويذكّروا بما اندرس من الأحكام والقيم والمبادىء ، وهم كثر والحمد لله .

ومن هؤلاء العلماء والدعاة والمصلحين والمفكرين المجاهدين السيد جمال الدين الأفغاني الذي يعتبر من أعظم دعاة الإصلاح الديني في هذه الآونة ، وكان حكيم الشرق ، وفيلسوف الإسلام ، وباعث النهضة الفكرية ، ومحرك الثورة ضد المستعمرين ، وموقظ الغافلين ، والداعي إلى الوحدة الإسلامية ، والتقريب بين المذاهب ، والمندِّد بالتفرق والاختلاف ، والتخلف والجمود ، ليعود الناس إلى دينهم وربهم ، وإلى عقيدتهم وشرعهم ، وإلى عزتهم وكرامتهم واستقلالهم ، وإلى وحدتهم ونهضتهم .

ونتناول في هذا البحث طرفاً من سيرته الزكية ، ثم نقتصر على اجتهاداته وآرائه ، وهي كثيرة ، لكننا نكتفي بأهم المبادىء التي تؤكد اجتهاده ، وتبين منهجه ، وتحدد رسالته ، وتكشف عن مقاصده وأهدافه ، مع تحليل هذه

الآراء ، وبيان أثرها في الواقع والحياة ، سواء أكان ذلك في عصره مباشرة ، أو بعد وفاته .

ونقسم البحث إلى عدة فصول ، وهي :

الفصل الأول : في نبذة عن ترجمته وحياته وسيرته ، كمقدمة للبحث وتمهيد له .

الفصل الثاني : في الاجتهاد ومكانته في الإسلام ، وأهميته في التشريع ، كتمهيد آخر .

الفصل الثالث : في اجتهاد السيد جمال الدين الأفغاني ، ومنهجه في الاجتهاد .

الفصل الرابع : في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

الفصل الخامس ؛ في التقريب بين المذاهب ، ونبذ التعصب المذهبي الشائع في عصره .

الفصل السادس : في تحريم الربا ، وموقفه من الفائدة .

الفصل السابع : في موقفه من الاشتراكية والشيوعية .

الفصل الثامن : في العروبة والإسلام .

الفصل التاسع : في دعوته للتحرر من الاستعمار والاستعباد والاحتلال .

ثم الخاتمة في خلاصة البحث ، وأهم النتائج والاقتراحات والتوصيات .

ونسأل الله التوفيق والسداد ، والإخلاص في العمل ، كما ندعو الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما يعلمنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يجعلنا من الهادين المهدين ، الملتزمين بشرع الله ودينه ، والمتأسين بهدي رسول الله ﷺ ، وأن نسير على سَنَن العلماء العاملين ، والدعاة المخلصين ، لنحظى بالخير في الدنيا ، والفوز بالآخرة ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

الفصل الأول

حياة السيد جمال الدين الأفغاني

(ولد سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨ م وتوفي سنة ١٣١٤ هـ/ ١٨٩٧ م)

اشتهر في العالم بأنه جمال الدين الأفغاني نسبة إلى أفغانستان ، وعرف بالسيد لنسبه الشريف إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

واسمه : محمد بن صَفْتر (أو صَفْدر ، وهي فارسية من صف ، ودر ، ومعناها مخترق الصفوف) الحسيني .

ولد بأسعد آباد بأفغانستان ، التابعة لخطة كنر من أعمال كابل ، ونشأ بكابل ، كما أكده تلميذه الأثير الإمام محمد عبده ، وتلقى العلوم العقلية من منطق ورياضيات وتاريخ ، والعلوم النقلية من تفسير وحديث وفقه وكلام وعقيدة وتصوف ، وبرع في الرياضيات .

سافر إلى الهند ، وتعلم اللغة الإنكليزية ، وجمع بين

الثقافة القديمة والحديثة ، الشرقية والغربية ، وحج إلى الحجاز سنة ١٢٧٤ هـ/ ١٨٥٧م ، وعاد إلى وطنه أفغانستان ، فأقام بكابل ، وانتظم في سلك الحكومة ، وتولى رئاسة الوزراء في عهد « الأمير محمد أعظم » ثم رحل ـ ماراً بالهند ـ إلى الأستانة بدعوة من السلطان عبد العزيز الذي عيّنه عضواً في « المجلس الأعلى للمعارف » ، لكن حصل خلاف بينه وبين شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي فاضطر إلى مغادرة دار الخلافة إلى مصر سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١ م ، وبقي فيها ثماني سنوات ، واستقبله الخديوي إسماعيل ورئيس وزرائه رياض باشا بالترحاب ، وتوطدت علاقته بالشيخ محمد عبده ، وكان قد زار مصر قبل ذلك سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩ م فاقام نحو أربعين يوماً فقط ، وقام في المرة الثانية بالدعوة والنشاط على مختلف الأصعدة والاتجاهات ، ونفخ روح النهضة الإصلاحية في الدين والسياسة ، واتصل ببعض أساتذة الأزهر ، وتتلمذ له نابغة مصر الشيخ محمد عبده ، وكثيرون ، منهم أديب اسحاق الذي كان من مريديه ، فتأثر به[1] ، واصدر جريدة « مصر » فكان السيد

---

(١) زعماء الإصلاح ص٦٩ .

جمال الدين يكتب فيها بتوقيع مستعار « مظهر بن وضاح » ، ثم أصدر السيد جمال الدين منشورات كثيرة ، وكان توقيعه على بعضها « السيد الحسيني » أو « السيد » .

ولما تولى الخديوي توفيق عام ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩ م أمر بنفي جمال الدين من مصر ، فرَحل إلى حيدر آباد بالهند ، فأقام فيها ثلاث سنوات ، ثم ذهب إلى باريس ، فاستدعى تلميذه الشيخ محمد عبده الذي كان منفياً بعد الثورة العربية إلى بيروت ، فالتحق به في باريس سنة ١٣٠١ هـ/ ١٨٨٤ م ، وأنشأ فيها مع الشيخ محمد عبده « جمعية العروة الوثقى » ثم أصدرا مجلة « العروة الوثقى » لتدعو الناس إلى النهوض ببلادهم ، والثورة على المستعمرين ، والتحرر من الاستعباد والاضطهاد السياسي ، والتمسك بالإسلام الصحيح ، والدين الحق .

ثم رحل السيد جمال الدين سنة ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٦ م رحلات طويلة ، فأقام في العاصمة الروسية « بطر سبرج » كما كانت تسمى ، أربع سنوات ، ومكث قليلاً في « ميونخ » بألمانيا ، حيث التقى بشاه إيران « ناصر الدين » ودعاه هذا إلى بلاده ، فسافر إلى إيران ، وتولى وزارة الحربية ، ثم ضيَّق

عليه بسبب آرائه السياسية والدينية ، فاعتكف في أحد المساجد سبعة أشهر ، كان يكتب في خلالها إلى الصحف مبيناً مساوىء الشاه ، ومحرضاً على خلعه .

ثم خرج إلى إنكلترا ، ونزل بلندن ، وأصدر مجلة « ضياء الخافقين » باللغتين العربية والإنكليزية ، واتصل بالمهدي في السودان ، كما اتصل بكبار الفكر والسياسة في فرنسا وإنكلترا والعالم العربي والإسلامي .

ثم دعاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى الأستانة عام ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢ م ، فذهب وقابله ، وطلب منه السلطان أن يكف عن التعرض للشاه فأطاع ، وتحرك ضده الحُسّاد ، والمخالفون من الساسة والعلماء ، وأثيرت عليه الوشايات ، وظل في دار الخلافة حتى علم السلطان بعد ذلك أنه قابل « الخديوي عباس حلمي » فعاتبه قائلاً : أتريد أن تجعلها عباسية ، وكان السلطان قد منحه بيتاً للسكن ، وراتباً ، ومرافقاً لخدمته .

ثم مرض بعد ذلك بالسرطان في فكّه ، وأجريت له عمليات جراحية ، ويقال : دس له السمُّ ، وتوفي بالأستانة عام ١٣١٤ هـ/ ١٨٩٧ م ، ثم نقل رفاته إلى بلاد الأفغان سنة ١٣٦٣ هـ/ ١٩٤٤ م .

وكان السيد جمال الدين عارفاً باللغات العربية ، والأفغانية ، والسنسكريتية ، والتركية ، وتعلم الفرنسية والإنكليزية ، والروسية ، وإذا تكلم بالعربية فلغته الفصحى ، وكان واسع الاطلاع على العلوم المختلفة ، والثقافات المتعددة ، وعارفاً بالحضارات ، وكان كريم الأخلاق ، كبير العقل مع التفتح والنباهة والفراسة وبعد النظر ، ويعتمد على الإقناع والتأثير بالعقول ، والأخذ بألباب السامعين ، وانصرف إلى الدعوة والفكر بالسر والعلن ، لإصلاح الشعب والحكام ، والعودة إلى الإسلام .

لم يكثر السيد جمال الدين من التصنيف ، وله كتاب « تاريخ الأفغان » و« رسالة الرد على الدهريين » ترجمها إلى العربية تلميذه الشيخ محمد عبده[1] ، وجمع محمد باشا

---

(١) ترجمها الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٣م ، وطبعت في ١١٦ صفحة ، وهي من نوادر المطبوعات ، ثم طبعت بمقدمة وافية بقلم محمد عبد الرحمن عوض في ١٠٧ صفحات ، وطبعت في مكتبة السلام العالمية بالقاهرة سنة ١٩٨٣م ، وحققها الأستاذ محمود أبو رية ، وطبعت في ١٤٩ صفحة بدار الزهراء ، بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م .

المخزومي كثيراً من آرائه في كتاب « خاطرات جمال الدين الأفغاني » ، وكتب عنه عشرات الكتب والرسائل والبحوث والدراسات .

لم يكن للسيد جمال الدين الأفغاني زوجة ، ولم يكن له ولد ، وانصرف إلى الدعوة والإصلاح ، وانبرى إلى معالي الأمور ، وحمل أعباء الأمة ، وتولى ريادة المجد في حياته ، وبعد موته ، حتى وصفه تلميذه الأثير الشيخ محمد عبده فقال : « وبالجملة ، فإني لو قلت : إن ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قُدّر لغير الأنبياء ، لكنت غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[1] .

وكان السيد جمال الدين الأفغاني من النابغين ، والخطباء البلغاء ، وكان المتحدث المفوَّه في كل مجال ، وكان داهية في فكره ، قوي الحجة ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ،

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، لمحمود أبو رية ص ١٥ ، جمال الدين الأفغاني ، لعبد الرحمن الرافعي ص ١٥١ ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، للسيد محمد رشيد رضا ١/ ٣٤ .

متوقد العزم ، شديد المهابة ، وكان سائحاً في الأرض ، طاف العالم الإسلامي ، وجال في أوربة ، فاكتسب العمق والتجربة والعلم الراسخ ، ثم وظّفه في الدعوة وخدمة الإسلام والمسلمين ، والشرق عامة[1] .

* * *

(١) انظر : الأعلام للزركلي ٣٨/٧ ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة ٣٤٤/٢ ، تاريخ الأستاذ الإمام ٢٧/١ ، خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني ، محمد المخزومي ص ٧ ، جمال الدين الأفغاني ، للدكتور محمد عمارة ص ١٥ ، جمال الدين الأفغاني ، عبد الرحمن الرافعي ص ٥ وما بعدها ، جمال الدين الأفغاني ، محمود أبو رية ص ٢٨ وما بعدها ، جمال الدين الأفغاني ، للدكتور محمود قاسم ص ٩ وما بعدها ، زعماء الإصلاح ، لأحمد أمين ، ص ٦٠ وما بعدها .

الفصل الثاني

الاجتهاد ومكانته في الإسلام

الاجتهاد في اللغة بذل الوسع والجهد ، وفي الاصطلاح : « استفراغ الفقيه الوسع ليَحْصُل له ظن بحكم شرعي » ، أو هو : « بذل المجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال »[1] .

وعرفه الأصولي الآمدي بأنه : « استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية ، على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه »[2] .

فالاجتهاد بذل الجهد في دَرْك الأحكام الشرعية العلمية ومعرفتها من أدلتها التفصيلية ، وهو من أهم أعمال الفقيه العالم في الإسلام .

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٥ .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ، للآمدي ١٤١/٤ .

والإجتهاد هو المصدر الرئيسي الثالث للأحكام الشرعية باتفاق المذاهب بعد القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ويغطي الاجتهاد جميع مصادر التشريع المعروفة بالإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والاستصلاح ، والاستصحاب ، ومذهب الصحابي ، والعقل عند من يقول به .

حتى إن الاجتهاد يشغل حيزاً كبيراً في المصدرين الأصليين ، وهما القرآن والسنة ، فيعمل الاجتهاد فيهما بالفهم ، والاستنباط ، ومعرفة الحكم ، والمضمون ، والدلالات من النصوص التي دلالتها ظنية ، دون التعرض للنصوص قطعية الدلالة ، وأركان الإسلام ، وما عُرف من الدين بالضرورة .

وهذه المصادر الثلاثة : القرآن والسنة والاجتهاد هي الثابتة في حديث رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن قاضياً ، وسأله : « كيف تقضي إذا عُرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله تعالى ، قال : فإنْ لم تجد في كتابِ الله ؟ قال : فبسنةِ رسول الله ﷺ ، قال : فإن لم تجد في سنةِ رسول الله ﷺ ولا في كتابِ الله ؟ قال : أجتهدُ رأيي ولا آلُو ، أي لا أقصِّر ، فضربَ رسول الله ﷺ

صدرَه ، وقال : الحمدُ لله الذي وَفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يُرضي اللهَ »[1] .

وقد لعب الاجتهاد دوراً عظيماً وحاسماً في تاريخ الفقه الإسلامي ، وكان مجاله واسعاً وكبيراً ، وكانت حدوده رحبة واسعة ، وبرهن للناس وللعالم صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان ، مع النصوص القطعية ، والقواعد الكلية في القرآن والسنة ، والمبادىء الأساسية ، والمنطلقات الثابتة ، والأركان المهمة ، وكان الاجتهاد عاملاً فعالاً من عوامل نمو التشريع الإسلامي وازدهاره طوال التاريخ الإسلامي .

وساعد الاجتهاد العلماء خاصة ، والمسلمين عامة ، على معرفة كل ما يستجد من آراء ، وتغطية كل ما ينزل بالمسلمين من نوازل وواقعات ، حتى صارت الشريعة والفقه الإسلامي أوسع ثروة تشريعية في العالم أجمع بالمقارنة مع تاريخ الشرائع والأنظمة والقوانين .

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود في سنة (٢/ ٢٧٢) والترمذي في جامعه مع تحفة الأحوذي (٤/ ٥٥٦) والإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٤٢) والدارمي في سننه (١/ ٦٥) .

وبدأ الاجتهاد عملياً منذ عهد النبوة ، ومارسه رسول الله ﷺ تحت رقابة الوحي الذي يثبت العصمة ، ويمنع الخطأ ، ويصحح المسار ، ثم قام الصحابة رضوان الله عليهم بالاجتهاد منذ عهد النبوة ، وتحت إشراف رسول الله ﷺ ورعايته وتوجيهه وعنايته ، وعرض اجتهاد الصحابة عليه ، ليقرَّ ما يوافق الحق والشرع والصواب ، ويرد ما يخالف ذلك ، ثم ثابر الصحابة رضوان الله عليهم بهذا الفرض المقدس ، وقدّموا اجتهادات كثيرة في مسائل عديدة تجمع في مجلدات ، ثم نهض التابعون بعدهم إلى إكمال الطريق ، وظهر فيهم الفقهاء المجتهدون ، وهم كثر ، ثم بلغ الاجتهاد شأوه وقمته في عهد الأئمة المجتهدين في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ونضج واستوى على سوقه في عهد تلاميذ الأئمة حتى القرن الرابع الهجري ، وصنفت فيه الكتب والمؤلفات ، وطبقه ـ عملياً وبتوسع كبير ـ العلماء والفقهاء والقضاة لبيان الحكم الشرعي في كل ما يطرأ ، ويغطي الساحة العملية ، والبلاد الإسلامية ، الممتدة من أقصى الشرق حتى أقصى الغرب ، وما يضارع جميع الحضارات والأنظمة والقوانين التي كانت سائدة في تلك البلاد قبل

دخولها في الإسلام ، وقام المجتهدون بتخريج الأحكام معتمدين على النصوص الشرعية أولاً ، وقواعد أصول الفقه لأئمة المذاهب في المصادر والدلالات ثانياً .

واستقرت المذاهب الفقهية ، وظهرت الموسوعات الجليلة والضخمة في مختلف المذاهب ، واقترن ذلك بالتطبيق العملي في رحاب الخلافة الإسلامية المترامية الأطراف ، ومن قبل العلماء والمفتين والقضاة ، وكان القضاء الشرعي هو بيت القصيد في إقامة الحق والعدل ، وتطبيق الشرع ، والأحكام ، وحماية الحقوق والأنفس والأموال ، والإشراف على المعاملات المالية الداخلية والخارجية ، الفردية والدولية ، وجميع مجريات الحياة .

ثم حلَّ الوهن والضعف بالمسلمين ، ووقع الجدب والقحط ، والجمود والتأخر ، وكادت المدارس الإسلامية أن تقفل ، أو تقتصر على المتون ، وتقنع بما وصلها ، مع التحجر فيه ، والتعصب المذهبي له ، وخشي العلماء أن يتسرب إلى الفقه والاجتهاد الأدعياء ، والجهال ، وأنصاف العلماء ، فيعملوا بالخراب والفساد والتحريف ، فاضطر المخلصون إلى أن يقولوا بقفل باب الاجتهاد لعدم وجود

المجتهدين ، وعدم توفر شروط الاجتهاد ، ولكن ذلك لم يكن على إطلاقه ، وبقيت الجذوة مشتعلة ، والعلماء قائمين على الاجتهاد الجزئي ، وكان عددهم محصوراً ، ومجالهم ضيقاً ، وخاصة في الفقه العام ، وأحكام السياسة الشرعية ، حتى تفاقم الأمر ، وضاق ، فقام المفكرون والدعاة والمصلحون للدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، وأهابوا بالأمة ، والأفراد ، وطلاب العلم ، والعلماء بأن يتولوا عملهم ، ويتحملوا مسؤوليتهم أمام الله والأمة والشعب ، ويؤدوا واجبهم في الفهم الصحيح للدين ، ونفي الزيغ والأوهام والأباطيل التي ظهرت مع الأيام ، ليكونوا وراثاً للنبوة ، ومشعل نور للأجيال .

وكثر الدعاة إلى الاجتهاد ، وفتح بابه ، وكان منهم الإمام المجتهد العلامة جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) الذي صنف كتاباً في ذلك ، وعنوّنه بما يقرع الأسماع ، ويهز الأبدان ، وسماه : « الردَّ على من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض » .

وكان من هذا الرعيل المخلص لدينه ، السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله تعالى الذي نعا التقليد والمقلدين ، وثار

على الجمود والتخلف ، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد ، ومارسه بنفسه عملياً ، كما سنرى في الفصل التالي .

وتركت هذه الدعوة الصادقة أثرها ، ونهض كثير من العلماء والفقهاء بواجب الاجتهاد ، وقدموا الآراء والأحكام التي يفرضها الواقع ، ويوجبها التقدم والتطور ، ويحتاجها الناس إلى حد كبير .

* * *

الفصل الثالث

السيد جمال الدين الأفغاني مجتهداً

إن المجتهدين عند علماء الأصول على مراتب ، منهم : المجتهد المستقل كأئمة المذاهب المعروفة ، والمجتهد المطلق غير المستقل كتلاميذ الأئمة وأصحابهم ، والمجتهد المقيد ، وهم كثر في كل مذهب ، ومجتهد التخريج ، ومجتهد الترجيح ، ومجتهد الفتيا .

وبيَّن الغزالي رحمه الله تعالى أنه يشترط في المجتهد شرطان فقط : « أحدهما أن يكون محيطاً بمدارك الشرع ، متمكنا من استثارة الظن بالنظر فيها ، وتقديم ما يجب تقديمه ، وتأخير ما يجب تأخيره ، والشرط الثاني : أن يكون عدلاً مجتنباً للمعاصي القادحة في العدالة ، وهذا يُشتَرط لجواز الاعتماد على فتواه ، فمن ليس عدلاً فلا تقبل فتواه ، أما هو في نفسه فلا ، فكأن العدالة شرط لقبول الفتوى ،

لا شرط صحة الاجتهاد »[1] .

ثم بيَّن الغزالي المدارك المثمرة للأحكام ، وحصرها بأربعة ، وهي : « الكتاب والسنة والإجماع والعقل ، وأن طريق الاستثمار يتم بأربعة علوم ، وهي :

١ـ معرفة نصب الأدلة وشروطها التي تصيّر البراهين والأدلة منتجة .

٢ـ معرفة اللغة والنحو على وجه يتيسر له به فهم خطاب العرب .

٣ـ أن يعلم أقسام الأدلة وأشكالها وشروطها .

٤ـ معرفة الرواية بما يخصُّ السنة لتمييز الصحيح منها عن الفاسد ، والمقبول عن المردود »[2] .

وحدّد الشاطبي شروط الاجتهاد بوصفين أيضاً : « أحدهما : فهم مقاصد الشريعة على كمالها ، والثاني : التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها »[3] .

---

(١) المستصفى ، للغزالي ٢/ ٣٥٠ وبحاشيته فواتح الرحموت .
(٢) المستصفى ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٢ .
(٣) الموافقات ، للشاطبي ٤/ ٥٧ طبعة محمد علي صبيح .

وذكر الآمدي والبيضاوي أنه يشترط في المجتهد شرطان ، الأول : أن يكون مكلفاً مؤمناً بالله ورسوله ، الثاني : أن يكون عالماً عارفاً بمدارك الأحكام الشرعية ، وأقسامها ، وطرق إثباتها ، ووجود دلالتها على مدلولاتها[1] .

ونضيف إلى ذلك قول أكثر العلماء في جواز تجزؤ الاجتهاد في جانب معين من الأحكام ، ولا يشترط في المجتهد أن يكون كامل الاجتهاد ، أو مجتهداً مطلقاً كالأئمة المعروفين ، ولكن يصح أن يدلي بدلوه في بعض الجوانب الفقهية المتخصص بها ، بعد أن يتوفر فيه ، كما يقول الغزالي : « أن يكون على بصيرة فيما يفتي ، فيفتي فيما يدري ، ويدري أنه يدري ، ويميّز بين ما لا يدري وبين ما يدري ، فيتوقف فيما لا يدري ، ويفتي فيما يدري »[2] .

وأكد ذلك الشاطبي ، فقال : « ولا يلزم المجتهد في

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤/١٤١ ، نهاية السول للإسنوي شرح منهاج الوصول للبيضاوي ٤/٥٤٧ .

(٢) المستصفى ، للغزالي ٢/٣٥٤ .

الأحكام الشرعية أن يكون مجتهداً في كل علم يتعلق به الاجتهاد على الجملة »[1] .

وهذا الكلام الدقيق الواضح يتفق مع التخصص العلمي الدقيق الذي شاع وانتشر في العالم ، وفي جميع العلوم والفنون ، وأنه يحقق نتائج أدق ، ومعرفة أصح ، وفهماً أعمق .

وإذا طبقنا شروط الاجتهاد السابقة على السيد جمال الدين الأفغاني لرأينا أنها تتحقق فيه ، وأنه بلغ عملياً رتبة عالية في الاجتهاد ، وأنه يعتبر من المجتهدين المجددين المصلحين ، المدركين لأحكام الدين ، ومقاصد الشريعة ، وفهم النصوص والأدلة ، بالإضافة إلى حذقه وخبرته العظيمة في شؤون الحياة ، ومجريات الأمور ، وواقع المسلمين ، وما يحيط بهم من أخطار ، وما ينتابهم من أمراض ، وما يحيق من تهديدات لوجودهم ودينهم ، وما ينهش عظامهم من الأوبئة ، وكان يحدوه الأمل أن يراهم خيْر خلف لخير سلف ، فيبث فيهم روح الإيمان والإسلام لفقه الدين ، وحسن تطبيقه ،

---

(١) الموافقات ، للشاطبي ٤/٦٨ .

والتخلي عن الشوائب والأدران التي تقف في طريقهم ، وتعيق مسيرتهم ، مع الأخذ بعين الاعتبار مؤهلاته السابقة ، وعلومه ، وأوصافه .

لقد توفرت شروط المجتهدين بالسيد جمال الدين الأفغاني ، فبلغ منزلة عالية في العلم ، والدليل عليه ما يصفه به معارفه وتلامذته وكل من خالطه ورآه ، وكل من درس آراءه وأفكاره ، وخبر فكره وجهاده ، فمن ذلك ما يقوله الإمام الشيخ محمد عبده في وصفه ، فيقول :

« أما منزلته في العلم ، وغزارة المعارف ، فليس يحدها قلمي ، إلا بنوع من الإشارة إليها ، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها ، وإبرازها في صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خُلق له ، وله قوة في حل ما يُعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عُقَدَها ، كل موضع يلقى إليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صُنْعُ يديه ، فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأنَّ ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لمسٌ في

الجدل ، وحذق في صناعة الحجة ، لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهداً على ذلك أنه ما خاصم أحداً إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك ، بعد أن أقر له الشرقيون ، وبالجملة فإني لو قلت : إن ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء ، لكنت غير مبالغ ، ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[1] .

وهذه شهادة من الإمام محمد عبده كافية بهذه الأوصاف والشروط أن يكون من المجتهدين المتميزين ، وجاءت أعمال السيد جمال الدين الأفغاني واجتهاداته ، وآرائه ، مؤكدة ذلك .

ويتجلى توفر الاجتهاد في السيد جمال الدين الأفغاني في دراسة معارفه ، وعلومه التي حصل عليها ، وأعماله التي قام بها ، ويمتاز اجتهاده ـ في رأيي ـ بأمور :

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، لمحمد رشيد رضا ١/ ٣٤ ، وانظر : جمال الدين الإفغاني ، الرافعي ص ١٥١ .

١ـ إنه ظهر في عصر شاع فيه غلق باب الاجتهاد ، وندر فيه المجتهدون ، ففتح الباب الموصد ، وتربع على عرش الاجتهاد واقعاً وعملاً ، وأبطل حجج غلق باب الاجتهاد ، وكسر حديده .

٢ـ إن اجتهادات السيد جمال الدين الأفغاني كانت في الأمور المهمة ، والقضايا الخطيرة التي تحتاج إلى توفر الشروط ، والجرأة ، والشجاعة ، والثقة بالنفس ، والإقدام ، وهي كليات وأساسيات في الدين والشريعة ، كالخلافة الإسلامية ، ونظام الحكم والشورى ، والوحدة الإسلامية ، والاقتصاد والاشتراكية والجهاد ، والعروبة والتعريب ، وغير ذلك من الآراء العديدة ، والمجالات المختلفة الهامة ، ولم يكن اجتهاده في مجرد العبادات ، أو البيوع والمعاملات ، والزواج والطلاق والميراث ، كما سنرى .

٣ـ إن السيد جمال الدين الأفغاني وضع منهجاً واضحاً للاجتهاد ، وهو منهج لا غبار عليه ، ولا يخالفه عالم مسلم ، ولا مسلم غيور ، وهو ما نفرده بالدراسة وعنوان مستقل .

٤ـ امتازت اجتهادات السيد جمال الدين الأفغاني باستفادتها الكاملة من الثقافة الإسلامية ، والثقافة الغربية ، ومن التجارب التي رآها ، وعاشها في عدة أقطار ، فقام بالتجديد الديني الواضح ، ودعا للإصلاح السياسي ، والاجتماعي ، ليس على مستوى الأفراد والتلاميذ فحسب ، بل تصدى في جميع ذلك إلى مقابلة الحكام والسلاطين والخلفاء والوزراء والولاة ، وقدّم النصح والإرشاد باللين حيناً ، وبالشدة والتهديد حيناً آخر ، وحاورهم مباشرة ، وجادلهم وجهاً لوجه ، وطالبهم بالاصلاح ، ووضع بين أيديهم الحلول والوسائل ، ورسم الخطط لهم عملياً .

لذلك كانت معظم اجتهاداته وآرائه في الفقه العام ، أو في أحكام السياسة الشرعية ، والخلافة والإمامة ، والدولة والأمة ، والتنظيم والتشريع ، وهذا المجال قد نضب الاجتهاد فيه في معظم حقب التاريخ الإسلامي ، وخاصة إذا قارنا بين اجتهاد المجتهدين والفقهاء في العبادات والمعاملات ، أو الأذكار والأدعية ، أو الزواج والطلاق ، وبين ما كتبوه ، واجتهدوا فيه ، في أحكام الإمامة والخلافة ، والدولة والسياسة ، لرأينا البون شاسعاً ، والنسبة متفاوتة جداً .

منهج السيد جمال الدين الأفغاني في الاجتهاد :

حدّد السيد جمال الدين الأفغاني منهجه في الاجتهاد ، ووضع النقاط على الحروف ، ورسم الطريق السوي ، وأقام العلامات البارزة ، بما يتناسب مع العصر ، وتقدم العلوم ، وسبق الحضارة العربية في الاكتشافات والاختراعات ، وأهم أسس منهجه في الاجتهاد هي :

١ـ قام السيد جمال الدين الأفغاني بتحليل أسباب تدهور الحضارة الإسلامية ، والضعف السياسي ، وأسباب التحلل والانحلال الاجتماعي الذي يعاني منه المسلمون ، وبدأ بتشخيص الداء والمرض قبل وصف الدواء والعلاج ، وأن السبب الأول في تأخر المسلمين وضياع مجدهم هو في « إهمال ما كان سبباً في النهوض والمجد ، وعزة المُلك ، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها ، وهي التي جمعت الأهواء المختلفة ، والكلمة المتفرقة ، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته »[١] .

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص ٢٥٧ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ، المحافظة ص ٧٣ .

ويستشهد على ذلك بالتاريخ العربي والإسلامي .

٢ـ إن الدواء والحل لهذا الواقع المزري الأليم ، والتخلف المقيت هو بالعودة إلى الدين النقي ، فهو يقول : « من يعجب من قولي : إن الأصول الدينية الحقة المبرأة من محدثات البدع ، تنشىء للأمم قوة الاتحاد ، وتحالف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهي بها أقصى الغاية من المدنية ، فإن عجبي من عجبه أشد ، دونك تاريخ الأمة العربية ، وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية ، والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات ، حتى جاءها ، وقوّاها ، وهذّبها ، ونوّر عقلها ، وقوّم أخلاقها ، وسدّد أحكامها ، فسادت على العالم ، وساست من توليه بسياسة العدل والإنصاف »[1] .

٣ـ تحرير العقل من الخرافات والأوهام ، والبدع والضلالات ، للعودة إلى نقاء الإسلام ، كما فهمه السلف الصالح والجيل الأول ، لتوجيه النفوس وجهة الشرف

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص٣٤٠ ـ ٣٤١ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص ٢١٤ ، ٢٢١ .

والطموح ، ودعم العقائد الدينية بالأدلة والبراهين ، وتهذيب الأفراد وتأديبهم ، وكان للسيد جمال الدين حِكم مأثورة وألفاظ بليغة ، وكلمات حكيمة تدل على رجاحة عقله ، وبعد نظره ، وعمق تفكيره[1] ، ويرى أن الحالة الفكرية في أوروبا وأميركا تربة خصبة لنشر الإسلام[2] .

٤ـ فتح باب الاجتهاد :

حمل السيد جمال الدين الأفغاني حملة شعواء على التقليد الأعلمى ، والتعصب للأقوال والآراء المنقولة ، وسد باب الاجتهاد ، ووضع الأقفال على العقول أمام اتساع العلوم ، وتقدم المعارف ، وتغير الأحوال والأزمان .

فقد ذَكر في مجلسه مرة قولاً للقاضي عياض ، فتعصب له بعضهم ، فقال السيد جمال الدين الأفغاني : « يا سبحان الله ، إن القاضي قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول

---

(١) انظر : زعماء الإصلاح ص١١٩ ، جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٨١ وما بعدها .

(٢) جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص ٢١٣ .

ما هو أقرب للحق ، وأوجه ، وأصح من قول القاضي عياض ؟ ! أو غيره من الأئمة ؟ ! ، وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم[1] ؟ ! فقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وأدلوا بدلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم ، وتقارب مع عقولهم »[2] .

وخالف السيد جمال الدين ما كان سائداً في « غلق باب الاجتهاد » والأقوال السائدة أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وأنه لا جديد تحت الشمس ، وأن من حفظ المتون حاز الفنون ، وأن الخير كلَّ الخير في النقل ، والشطط كل

---

(١) والحقيقة أن الأئمة لم يقفوا عند حد أقوالهم بأنفسهم ، وكانوا يغيرونها ، ويجتهدون للأحسن ، كالشافعي في مذهبه الجديد ، وأبي حنيفة في استحسانه وعدوله عن القياس ، ثم فعل أصحابه وأتباع المذاهب مثل ذلك في أقوال الأئمة دون تقديس لها أو جمود عليها .

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، المخزومي ص١٧٧ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ص٧٤ ، جمال الدين الإفغاني ، الرافعى ص١٥٩ ، جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص١٨٩ ، زعماء الإصلاح ص١١٣ .

الشطط في الاعتماد على العقل ، فقال السيد جمال الدين مستنكراً ومستغرباً ورداً على القائلين بإغلاق باب الاجتهاد ، مع الدعوة إلى فتحه ، ووجوب العمل به ، قال : « ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سدَّ باب الاجتهاد ؟ أو أي إمام قال : لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ؟ أو أن يهتدي بهدي القرآن ، وصحيح الحديث ، أو أن يجدَّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية ، وحاجات الزمان وأحكامه ؟ ولا ينافي جوهر النص ، وأولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن لا يصح أن يعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من عملهم الماهر ، وتحقيقهم ، واجتهاداتهم ، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم والحديث الصحيح في السنن والتوضيح ، إلا كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده »[1] .

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، المخزومي ص١٧٨ ـ ١٧٩ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ص٧٤ ، جمال الدين الأفغاني =

٥ـ الاعتماد على القرآن والسنة :

ويظهر من النص السابق التزام السيد جمال الدين الأفغاني بمصادر التشريع الصحيحة المتعمدة ، لاستنباط الأحكام ، وهي القرآن الكريم ، والسنة الشريفة الصحيحة ، والقياس ، وغيرها ، وأن التحليل والتحريم لا يكون إلا بأمر الله تعالى نصاً أو اجتهاداً ودلالة ، وهو منهج السلف الصالح والأئمة وعلماء الأصول .

ويؤكد السيد جمال الدين ذلك فيقول : « كان علماء السلف والأئمة منهم لا يجرؤون على القول بسنة من سنن الرسول ﷺ إلا بعد التدقيق والنظر في الاجتماع ، وتحري الثقات من الرواة . . . ، أما الجهلاء من المشايخ المتعممين اليوم فتراهم يتهجمون على التحريم للحلال ، والتحليل للحرام بغير نص ، وقد جهلوا أن مقام التحريم ما جاز لصاحب الشرع الرسول الأعظم ﷺ إلا بتنزيل » لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم : ١] ، ثم قال : « وقد

= عمارة ص٢٦٩ ، جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص١٩٠ ، زعماء الإصلاح ص١١٣ .

رأيت منذ أيام شيخاً بعمامة كالبرج ، وجبة كالخرج ، آخذاً بتلابيب رجل أقعدني قرب جامع السليمانية في الأستانة ، وهو يهزّه ، ويقول له : إنَّ لبسك هذا القميص حرام وكفر ! لأنه صنع الإفرنج الكفار ! ! فما وسعني إلا أن تقدمت إلى ذلك الشيخ الجاهل ، وقلت له : يا شيخ إن عمامتك وجبتك ، وعمامتي وجبتي ، هي من صنع الإفرنج ! فلماذا لا تخلع عمامتك ، وترمي جبتك أولاً ، ثم تعمد إلى قميص الرجل فتشلحه إياه ، وكم من أمثال هذا الشيخ الجاهل في هذه الأمة بهذه الأيام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » ويقول السيد جمال الدين لمثل هذا الجاهل : « يا هذا ، أضعتم حقائق الدين بين سوء معقولاتكم ، وعدم تفهم منقولاتكم »[1] .

ولاعتماد السيد جمال الدين على القرآن الكريم والسنة الصحيحة فقد كان يكثر من الاستشهادات بآيات الله تعالى ، والأحاديث الشريفة ، ويعتمد عليها في الحجج والاستدلال ، والجدال والمناظرة ، والتوجيه والإرشاد .

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٧٧ ، وانظر الاتجاهات الفكرية ص٧٤ .

٦ـ دلالات الألفاظ ، وتفسير النصوص :

كان السيد جمال الدين الأفغاني يبذل جهده في فهم النصوص الشرعية ، ويعمل عقله في دلالات الألفاظ في القرآن والسنة ، ويحرص على حسن الاستنباط والاستدلال منها ، ويدقق في فهم النصوص الشرعية ، لاستخلاص الصحيح منها ، بالاعتماد على القرآن الكريم في المقام الأول ، ثم على الحديث المتواتر الذي يعتبره في درجة القرآن الكريم في إثبات الحكم ، ثم على حديث الآحاد ، وإجماع المسلمين في صدر الإسلام .

ويحضُّ على الالتزام بالقرآن ، لأنه الدواء والشفاء لكل أسقام المسلمين ، ويقول : « كل مسلم مريض ، ودواؤه في القرآن ، وما على طالب الحكمة إلا أن يتدبر معانيه ، ويعمل بأحكامه »[1] .

ثم يحض على الالتزام بالسنة النبوية ، مع الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ ، فيقول : « فهل المسلمون اليوم

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص ٥١ طبع دار الفكر الحديث .

عاملون بما جاءهم به محمد ﷺ ، أو مقتدون به كما اقتدى الأصحاب والتابعون »[1] .

أما ما عدا ذلك من آراء واستنتاجات واجتهادات قال بها الفقهاء المسلمون فيستأنس بها كرأي ، ولا يعتمد عليها كدليل وقاعدة ، وهذا ما يقرره علماء الشريعة جميعاً في هذا العصر في تقنين الشريعة الغراء ، والالتزام بالقرآن والسنة الصحيحة الثابتة ، مع الاستئناس بآراء الفقهاء والمجتهدين ، وهو المطبق اليوم في قوانين الأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة ، والمعمول بها في معظم البلاد الإسلامية ، وكذلك الأمر في التشريعات والأنظمة والقوانين المستمدة اليوم من الشريعة والمطبقة في بعض البلاد الإسلامية .

٧ـ التوفيق بين الإيمان والعلم :

إن الإسلام دين العلم ، وإن أحكامه تنسجم مع معطيات العلم الصحيح ، ولا يمكن أن يتناقض العلم مع الإسلام ، لذلك يعتقد السيد جمال الدين الأفغاني أنه لا يوجد خلاف بين ما جاء في القرآن وبين الحقائق العلمية ، وإن ظهر شيء

---

(١) المرجع السابق .

من ذلك فهو إما علم غير صحيح ، وإما أن يكون تفسير العلماء لآيات القرآن غير دقيق ، ولا كاف ، ولا صحيح ، ويجب تصحيح تأويله ، لذلك يقول :

« إنَّ الدينَ لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ، فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله ، وقد عمَّ الجهل ، وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء ، حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن برىء مما يقولون ، والقرآن يجب أن يُجَلَّ عن مخالفة العلم الحقيقي ، خصوصاً في الكليات »[1] .

وهذا ما أكدته الدراسات المعاصرة ، وآراء العلماء والمفسرين المعاصرين في تفسير الآيات المتعلقة بالكون اعتماداً على ما توصل إليه العلم والاكتشافات ، حتى عقدت الندوات ، وصنِّفت الكتب عن الإعجاز العلمي في القرآن .

ويضرب السيد جمال الدين الأفغاني مثالاً على ذلك ، فيقول : « اثبت العلم كروية الأرض ، ودورانها ، وثبات

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، أحمد أمين ص١١٤ ، الاتجاهات الفكرية ص ٧٤ ـ ٧٥ .

الشمس على محورها ، فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لا بدَّ أن تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب أن يجل عن مخالفته للعلم الحقيقي ، خصوصاً في كلياته ، فإذا لم نرَ في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ، ورجعنا إلى التأويل ، إذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة ، وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق ، كامنة في الخفاء ، لم تخرج لحيّز الوجود ، ولو جاء القرآن ، وصرح بالسكة الحديدية والبرق ، وما تفعله الكهرباء من العجائب وغير ذلك ، لضلت الناس ، وأعرضت عنه ، وحسبته كذباً »[1] .

ولذلك يجب أن يتم التوازن بين العلم والإيمان ، فيزداد الذين آمنوا إيماناً بالعلم والمعرفة تحقيقاً ، لقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، ويكون الدين والإيمان باعثاً على العلم ، ومحرضاً على البحث في الكون ، واستخراج مكوناته ، وهذا ما سنراه تفصيلا في

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، المخزومي ص ١٦١ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ص ٧٥ .

موقف السيد جمال الدين من العقل حتى سمي حكيم الشرق ، وفيلسوف الإسلام .

وإن العلم الصحيح لا يغاير الدين ، ولا يضر بعقائد المسلمين ، والإسلام يأمر بالعلم ، ويحثُّ عليه ليرشد إلى أسرار الكون ، ويأمر بالنظر في ملكوت الله في السماوات والأرض ، وكل علم صحيح يعتبر جزءاً من دعوة الدين[1] .

مع مراعاة أمرمهم ، وهو أن العلم سلاح ذو حدين ، فيستعمل للخير ، كما يستعمل للشر ، وإن التقدم العلمي الذي يهيء للإنسان والبشرية حياة أرغد ، وسعادة أطيب ، ورقياً واسعاً ، فإنه يهدد الإنسان والبشرية بالفناء والخراب والدمار والإبادة كالقنابل النووية ، والذرية ، والأسلحة الكيميائية التي وصل إليها العلم ، لذلك يجب اقتران العلم بالدين لتوجيه الوسائل العلمية نحو الخير والصلاح ، وإبعاده عن الشر والفساد ، ولكبح جماح النفوس الشريرة ، ومنع استغلال المكتشفات للأغراض الدنيئة[2] .

---

(١) انظر كتابنا : وظيفة الدين في الحياة ، الفصل الخامس : الإسلام والعلم ص٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص١٠٨ .

٨ـ دراسة الفكر المعاصر :

إن تطبيق النصوص الشرعية ، والأحكام الفقهية توجب على العالم والمفتي أن يكون عارفاً بالواقع الذي يعيشه ، والظروف التي تحيط به ، والأفكار والثقافات التي تهيمن على الناس[١] .

لذلك يرى السيد جمال الدين الأفغاني ضرورة اطلاع العلماء المسلمين على التيارات الفكرية الحديثة ، لقبول ما يتفق مع الإسلام ، ويفيد المسلمين في حياتهم ، ورفض ما يتعارض وعقيدتهم بالحجج العقلية ، والبراهين المنطقية ، لذلك ألف الأفغاني كتاباً بالفارسية « الرد على الدهريين » والرد على الطبيعيين ، وغير ذلك من الأفكار والآراء التي شاعت في عصره ، ونقل الشيخ محمد عبده الكتاب إلى العربية ، وأكد الأفغاني أن الدين أساس المدنية ، والإلحاد فساد العمران ، وصرح الأفغاني على الدافع لتأليف هذا الكتاب ، فقال : « إن كثيرين من مسلمي الهند تلوثوا بهذا

---

(١) انظر كتابنا : النظريات الفقهية ، نظرية العرف ، ومكانة العرف بين مصادر التشريع وحجية العرف ص١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٨١ .

البدعة التي بثها الإنكليز في بلادهم ، من حيث أنهم (أي الإنكليز) رأوها أقرب وسيلة للوصول إلى غرضهم ، وتأييد سلطانهم في الهند ، وجد الإنكليز أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان في أوطانهم ، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام الذي لا يمكن انسلاخه عنها ، ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ، ففكروا في أمر يضعف أثر هذه العقيدة في نفوسهم فرأوا أن أقرب طريق إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين. . . ، والتعطيل الذي هو الإلحاد. . . ، وإنما سعى الإنكليز في جعل المسلمين دهريين ، ولم يسعوا في جعل المسيحيين لأنهم رأوا بعد طول تجربة واختبار أن دعوة المبشرين لمسلمي الهند بالنصرانية لم تنجح ، وأن مساعيهم في نشرها كانت تذهب ادراج الرياح »[1] .

٩ـ رفض تقليد الغرب في النواحي الاجتماعية والأخلاقية والعادات والتقاليد ، والاقتصار على المفيد النافع والتقدم

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، ذكريات وأحاديث ، المغربي ص٨٦ ـ ٦٩ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ، المحافظة ص٧٧ .

العلمي وعدم أخذ شيء عن الغرب بدون ضرورة لذلك أو تمحيص وإمعان .

يقول السيد جمال الدين الأفغاني : « وعلمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين في كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون ـ بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم ـ شؤماً على أبناء ملتهم يُذلونهم ، ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلّت ، وإن بقي في بعض رجال الأمة شيء من الشمم ، أو نزوع إلى معالي الهمم انصبوا عليه ، وأرغموا من أنفه حتى يمحي أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبل ، ويفتحون لهم الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فعلاً لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم »[1] .

---

(١) العروة الوثقي ، جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ص٥٩ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ص٧٦ ، وطبعت =

ويؤكد السيد جمال الدين الأفغاني وجوب العودة إلى الدين ، وأن مجرد تقليد الغرب هو انحطاط وتقهقر ، فيقول :

« إننا ـ معشر المسلمين ـ إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق ، وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط ، لأننا في تمدننا هنا مقلدون للأمم الأوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب ، والاستكانة لهم ، والرضا بسلطانهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الإسلام التي من شأنها رفع راية السلطة والغلبة إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي » .

= « العروة الوثقى » عدة مرات ، في بيروت ، دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٣م في (٤٥٤) صفحة ، ط٣ ، وفي القاهرة ، المكتبة الأهلية ، سنة ١٩٢٧م في (٥٢٠) صفحة ، وطبع منتخبات منها سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٥م في مطبعة الجامعة بالقاهرة .

ثم يقول السيد جمال الدين : « لا بد من حركة دينية : وهي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام ، ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي ، بثّ القرآن ، وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بها إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى ، ولا بد من تهذيب علومنا ، وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات فيها قريبة المأخذ ، سهلة الفهم ، لنستعين بها على الوصول إلى الرقي والنجاح »[1] .

وهكذا يصف السيد جمال الدين المرض والحالة الراهنة ، ويشخص الداء ، ثم يصف الدواء من الإسلام والقرآن ، ويرسم الطريق والمنهج ، ويرشد إلى الطريق الأقوم للوصول إلى الغاية والهدف .

١٠ـ الإصلاح الديني :

يرى جمال الدين الإفغاني ضرورة الإصلاح الديني ،

---

(١) المرجعين السابقين ، جمال الدين الأفغاني ، أبو ردية ص٢١٤ ، ١٩٢ .

ليكون وسيلة إلى التقدم والمدنية والحضارة ، وأنه يجب فهم الإسلام الصحيح ، وعدم التمسك بالقشور ، أوالوقوف عند الشائع بين العوام ، فيقول :

« لابد من حركة دينية ،لأننا إذا نظرنا في سبب انقلاب حالة أوربا من الخشونة إلى المدنية نراه الحركة الدينية ، وذلك منذ عهد لوثيروس رئيس الطائفة البروتستانتية ، فإنه لما رأى أهل أوربا تعتقد في البابا اعتقاداً يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لأوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة ، قام بتلك الحركة الدينية التي نشأت عنها الانقسامات بين الشعوب ، وجعل كل شعب يغار من الآخر ، ويحاربه في سلوك سبل النجاح ، وخلاصة الأمر أنَّ تمدَّنَ أوربا ينسب إلى تلك الحركة . . . » .

ثم يقول : « حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص ، من فهم بعض العقائد الدينية ، والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي ، مثل حملهم القضاء والقدر[1]على معنى يوجب أن لا يتحركوا لطلب

---

(١) كتب السيد جمال الدين بحثاً بعنوان « القضاء والقدر : أصول العقائد الإسلامية ، وأمهات المسائل التوحيدية » وطبع في =

مجد ، ولا لتخلص من ذل ، ومثله : فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح . . . ، فلاَ بدَّ من بث العقائد الدينية الحقة بين الجمهور ، وشرحها لهم على وجهها المناسب ، وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وآخرة »[1] .

ويؤكد السيد جمال الدين الأفغاني على وجوب التمييز بين الإسلام في جوهره وحقيقته ، وبين ما يمارسه كثير من المسلمين من الانحرافات ، وما تبثه الطرق الصوفية المتطرفة من بدع ، فالإسلام في جوهره وحقيقته يختلف عما هو عليه المسلمون ، وعما يشيع بين العامة والجهال ، لذلك يجب تخليص الإسلام اليوم عما شابه من أوهام ، وما خالطه من معتقدات مفسدة ، ليعرفه الناس في صورته النقية ، مع كشف

= المكتبة المحمودية بالقاهرة ١٩٣٦م في ١٦ صفحة . وانظر المقالة الثانية عشر في مجلة « العروة الوثقى » بعنوان : القضاء والقدر » في تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٣٩١ .

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغان ، محمد عمارة ص٣٢٨ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ص٧٧ .

أخطار البدع ، أو المتاجرة بالدين ممن يرون أن الحرام معقود بألسنتهم ، ولذلك حذر السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده من بدع الطرق في الموالد المعروفة في مصر ، كالخلط بين الأذكار ، وضرب الطبول ، وهياج الذاكرين كالهستريا ، وهيام المعاتيه ، وأكل النار والزجاج ، والاختلاط المشين ، وما يعرف بالدَوْسة التي يركب فيها مشايخ الطرق على الخيل ، ويدوسون على ظهور الناس ، مع أن الإسلام أمر بتكريم الإنسان ، وحرم إهانته إلا لحدٍ أو تعزير ، في عقوبة ومعصية[1] .

١١ـ توحيد الفرق الدينية :

استنكر السيد جمال الدين الأفغاني انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، ودعا إلى توحيد الفرق الدينية ، وسعى إلى إزالة الخلاف بين الفريقين ، متهما ملوك السنة بتهويل أمر الشيعة لكسب ودِّ العوام ، ومنددا بإثارة الشيعة لنقاط الخلاف الفرعية ، والتمسك بقضايا تاريخية عفا عليها الزمان ، ولا

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، للدكتور محمد حسين ١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

مبرر لاستمرار خلاف سياسي أكل الدهر عليه وشرب ، وهو يقول :

« فالملوك من السنِّيين هوّلوا ، وأعظموا أمر الشيعة لاستهوائهم العوام بأوهام غريبة ، وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت ، ليتسنى لهم بذلك تقريب الأحزاب ، وتجييش الجيوش ، ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً بحجة السنة والشيعة ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن ، وبرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم » .

« أما مسألة تفضيل الإمام علي ، والانتصار له يوم قتاله معاوية وخروجه عليه ، فلو سلمنا أنه كان في ذلك الزمن مفيداً ، أو ينتظرون من ورائه نفعاً ، لإحقاق حق أو إزهاق باطل ، فاليوم نرى أن بقاء هذه النعْرة ، والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها ، وانقضى مع أمة قد خلت ، ليس فيها إلا محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية »[1] .

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، محمد عمارة ص٣٣٠ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ، المحافظة ص٧٨ .

وأرى أن توحيد الفرق مستحيل وشبه أحلام ، وأن الدعوة ليست إلى توحيد السنة والشيعة ، وإنما إلى تنسيق العمل بينهم ، ومنع المهاترات في الكتب ووسائل الإعلام ، ونبذ التعصب ، وترك نقاط الإثارة والهجوم والأحقاد التاريخية ، وتوحيد خطة العمل ضد الأعداء ، بدلاً من توجيهها بين المسلمين .

١٢ـ الدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية :

واجه الإسلام هجوماً كبيراً ، واتهامات باطلة من الغرب ، فالمستشرق أرنست رينان الفرنسي ألقي محاضرة عام ١٨٨٣ بعنوان « الإسلام والعلم » وادعى « أن أي إنسان على قدر من المعرفة العصرية يرى بجلاء تخلف البلاد الإسلامية ، وتدهور الدول التي تدين بالإسلام ، والإفلاس الثقافي والتعليمي عند الأجناس المعتنقة لهذا الدين ، كما يلاحظ أولئك الذين عاشوا في الشرق وأفريقيا باستغراب ، القصور الروحي عند المؤمن الحق ، والبوتقة الحديدية التي تغلف عقله ، والانغلاق الذهني والمحكم الرافض للعلم ، بحيث يصبح عاجزاً عن التعلم أو الانفتاح على أية فكرة

جديدة »[1] ، وادعى رنيان أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث ، وأن الجنس العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

وانبرى السيد جمال الدين الأفغاني للرد عليه ، ليبرز دور الإسلام في الحض على العلم ، وتنمية الفكر الإنساني ، واستشهد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ودلل على ذلك بالانجازات العلمية ، والمآثر الفكرية التي حققها العرب ، فقال :

« الكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حالة الهمجية التي كان عليها ، وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني والعلمي ، ويغذُّ السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن خلال قرون من التكيُّف بالعلوم اليونانية والفارسية . . . ، فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب ، وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتها . . ، كان العرب في ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ،

---

(١) الاتجاهات الفكرية عند العرب ، المحافظة ص٧٨ ، زعماء الإصلاح ص٨٩ .

فأحبوا تلك العلوم المندثرة ، ورقّوها ، وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذه دلالة ، بل لبرهان على حبّهم الطبيعي للعلوم » .

وقال السيد جمال الدين : « صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم ، كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقّوها ، ووسعوا نطاقها ، ووضعوها ، ونسّقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق ، وتنطوي على التثبت والدقة النادرين . . . ، وجاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدينة العربية على قمة جبال البرانس (بالأندلس) يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه ، وهو في ثوبه اليوناني ، على مقربة منهم ، أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية ، وحبّهم الطبيعي للعلوم ؟ ! »[1] .

هذه معالم رئيسية لمنهج السيد جمال الدين الأفغاني في

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، محمد عمارة ص٢٠٨ ، وانظر : الاتجاهات الفكرية ، المحافظة ص٢٠٨ ، جمال الدين الأفغاني ، حياته وفلسفته ، د . محمود قاسم ص٢١٣ .

الاجتهاد ، وهي موافقة للمنهج الاجتهادي في الإسلام عامة ، وتمتاز بواقعيتها ، وصلتها بالحياة ، والظروف المحيطة ، وعدم اقتصارها على النواحي النظرية التي يقتصر عليها معظم علماء الأصول المتأخرين .

وهذا ما يؤكده المحققون من الفقهاء وعلماء الأصول من وجوب اطلاع المفتي على العرف السائد بين الناس ، والواقع الذي يعيشونه ، وأنه من شروط المجتهد أن يعرف عادات الناس ، وما يتردد في الأذهان ، ويتنبه إلى الدس والافتراء والتشويه اللاحق بالشرع والنصوص ، ويدحض التحريف والتشويه في الدين ، حتى يعيش في عصره ، ولا يكون خيالياً ، ونظرياً ، ومتخلفا عن متطلبات العصر ، وحاجات الأمة ، وأمراض المجتمع ، وأهداف الدين ، ومقاصد الشريعة ، أو متواريا خلف النصوص الفقهية والمذهبية ، فيفقد كيانه وتأثيره ، بل يجب أن يُعمل عقله وفكره في النصوص والواقع ، وفي ذلك تأكيد لأهمية الإنسان في إعمال العقل ، وأنه الهدف والمقصود من الأحكام والتشريع[1] ، كما سنفصله .

---

(١) النظريات الفقهية ص١٧٢ ، ١٨٢ .

١٣ـ إعمال العقل :

إن تكريم العقل ، وتمجيده ، وطلب إعماله ، إنما هو فرع من قيمة الإنسان في الوجود ، وأنه أفضل المخلوقات وأنه تميَّز عن غيره بالعقل وحده ، ولذلك يقول جمال الدين الأفغاني منوهاً بعظمة الإنسان وأهميته :

« الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون ، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم ، وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته ، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا ، وما صوَّره جموده ، وتوقف عقله عنده ، بأنه خيال ، قد أصبح حقيقة »[١] .

وهذه الاكتشافات ـ اليوم ـ وركوب الطائرة ، واختراع أجهزة الاتصالات ، والتلفاز ، والهاتف والفاكس والانترنت تؤكد صحة ما يقوله السيد جمال الدين الأفغاني ، وكأنه

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٢٦٤ ، ٢٦٥ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٧٠ ، التكريم الإلهي للإنسان ص١١ ، لنا .

يتحدث عنه واقعاً ، أو يبشر به قبل أوانه .

وكان السيد جمال الدين متأثراً بالفكر الفلسفي العقلي للفلاسفة العرب المسلمين كأبي الوليد بن رشد (٥٩٥ هـ - ١١٩٨م) ، وكان يمجد العقل حتى عرف السيد جمال الدين بأنه فيلسوف الإسلام ، أو فيلسوف الشرق في العصر الحاضر ، وهو ما حدا بأعدائه ، وخاصّة المستشرق رينان أن يقرنه بالفلاسفة الملحدين ، الذين يحتكمون إلى الأدلة البرهانية العقلية اليقينية ، ولا يركنون إلى أساليب الوعظ والخطابة ، لما لمسه فيه من تركيز على العقل ، وتصوره الخاطىء أن الإسلام يتنافى مع العلم والعقل ، ولذلك يقول رينان عنه بعدما التقى به وناظره :

« وقد خُيل إليَّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، أنني أرى وجها لوجه من عرفتهم من القدماء ، وأنني أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو أحد أولئك الملحدين العظام ، الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار »[1] .

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٦٥ ، وانظر : جمال الدين=

- لكن هذا الموقف من السيد جمال الدين الأفغاني يذكر بموقف العلماء المسلمين الكبار من العقل ، ومكانته في الإسلام ، كابن تيمية في« صحيح المنقول وصريح المعقول » وشيخ الإسلام صبري في « موقف العقل والدين من رب العالمين » والعقاد في كتابه « التفكير فريضة إسلامية »[1] .

وكان السيد جمال الدين يرى أن « الحكم للعقل والعلم »فيما لم يرد فيه نص شرعي[2] .

= الأفغاني ، حياته وفلسفته ، الدكتور محمود قاسم ص١٢٩ وما بعدها ، زعماء الإصلاح ص١٠٩ . يقول السيد محمد رشيد رضا : « إن الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن يتّهموا بالكفر والإلحاد كل نابغة في العلوم العقلية ، بل كل مثقل في العلم لا يتبع الناس في جميع ما درجوا عليه من التقاليد الدينية ، ولذلك نبزوا بلقب الكفر أو الابتداع مثل ابن سينا وابن رشد من الفلاسفة. . . » تاريخ الأستاذ الإمام ٥١/١ ، وانظر : المقالة السادسة من العروة الوثقى ، في تاريخ الأستاذ الإمام ٢٥٥/٢ .

(١) انظر : وظيفة الدين في الحياة ، لنا ص٥٣ ، التفكير فريضة إسلامية ، للعقاد ص٥ .

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص٩٥ .

وجمع السيد في تفكيره وعقله بين الحكمة الفلسفية والإيمان بجوهر الإسلام وحقائقه الأولية في صورتها النقية الصافية ، والخالية من الخرافات والإضافات[1] ، ولذلك وقف ضد مسألة « غلق باب الاجتهاد » ، وهو ما نراه في تمجيد السيد جمال الدين في أفكاره ومناظراته ومناقشاته ، وفي تفسيراته وتطبيقاته ، وفي مواقفه العملية والجهادية والدعوية على كل الجبهات ، ولذلك يحذر من المرض الذي أصاب معظم المسلمين في العصور الأخيرة بالتقليد والجمود والتسليم الأعمى ، فيقول السيد جمال الدين :

« العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم على ما به من جمال ، لا يُرضي الإنسانية كل الإرضاء ، وهي تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها »[2] . ويحتكم السيد جمال الدين

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٦٨ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص١٠٢ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٦٩ .

إلى العقل عند وقوع « التناقضات » او « الاختلافات » بين حقائق العلم وبين ظاهر آيات القرآن الكريم ، ويقول :

« القرآن يجب أن يجلَّ عن مخالفته للعلم الحقيقي ، خصوصاً في الكليات ، فإذا لم نَرَ في القرآن ما يوافق العلم والكليات ، اكتفينا فيه بما جاء من الإشارة ، ورجعنا إلى التأويل »[1] أي بالعقل .

ويرى السيد جمال الدين أن إعمال العقل في العلم يحقق الاكتشافات الباهرة ، والانجازات العجيبة ، حتى صرح بإمكان اقتحام الإنسان لعالم الفضاء ، وهو ما حققه الإنسان فعلا عام ١٩٦٢ ، ووصل إلى القمر وغيره من الكواكب ، فقال السيد :

« وهل يبقى مستحيلاً إيجاد مطية توصله (أي الإنسان) للقمر ، أو الأجرام الأخرى ؟ . . . ، وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان في مستقبل الزمان إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة التي

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٦١ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٧٠ .

ما وجدت إلا للإنسان ، وما وجد الإنسان إلا لها »[1] .

وفي ذات الوقت يعترف بأن العلم سلاح ذو حدين ، ولذلك يحذر من العلم الضار والمفسد ، فيقول السيد :

« إن العلم الصحيح ، الذي يمكن للآدمي أن يصل إليه ، هو العلم الذي به ينتهي الإنسان عن الفساد في الأرض ، وسفك الدماء »[2] ، ثم يقرر إدانة الحروب والمجازر وسفك الدماء البريئة ، فيقول : « الحرب . . . من أقبح ما عمله ويعمله الإنسان في الأرض »[3] .

ويندد بالحرب الفتاكة التي وقعت في الغرب (وذلك قبل وقوع الحربين العالميتين) فيقول : « لو جمعنا كل ما في مَدَنيّة تلك الأمم (الإنكليز ، والفرنسيين ، والألمان ،

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٢٦٥ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٧١ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٤٣٣ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٨١ ـ ٢٨٦ ، وظيفة الدين في الحياة ص١٠٧ .

(٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٤٣١ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٨٤ .

والأميركان) من خير ، وضاعفناه أضعافاً مضاعفة ، ووضعناه في كفه ميزان ، ووضعنا في الأخرى الحروب وويلاتها لا شك أن كفة المكتسبات العلمية والمدنية ، والتمدن ، هي التي تنحط وتغور ، وكفة الحروب وويلاتها هي التي تعلو وتفور »[1] ، ثم يطالب بتحكيم العقل في الخلافات الدولية فيقول : « إن عدم إجابة الأمم لداعي الحرب ، واتفاقها على تحكيم العقل والعدل فيما فيه يختلفون ، هو الذي يكفي البشر شر الحروب والقتال ، ويجعل الخلق في سلام دائم ، وهناء مقيم »[2] .

* * *

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٤٣١ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٨٥ .

(٢) الأعمال الكاملة ص٤٣٤ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٨٧ ، وهذه الأفكار في شجب الحرب دعت « مجلس السلم العالمي » لاتخاذ قرار سنة ١٩٥٤م لإحياء ذكرى جمال الدين الأفغاني ، وقدمت دراسات وبحوث تمجد كفاحه كمناضل في سبيل السلام (جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٨٣) .

الفصل الرابع

الدعوة إلى الجامعة الإسلامية

وصل المسلمون في العصور الأخيرة إلى حالة سيئة من التمزق والشتات ، والبعد عن بعضهم ، مما أغرى الأعداء باقتناص بلادهم واحتلالها واستعمارها واحداً بعد الأخر ، وسادت روح الانفصال والاقليمية بين البلاد الإسلامية ، ثم انعزلت الأقاليم الإسلامية عن بعضها ، وقد تقع الحرب بينها ، وتنبعث العداوة والأحقاد التاريخية بين شعوبها التي صارت في حالة يندى لها الجبين .

وتحرك الدعاة والعلماء والمصلحون لجمع الشتات ، ولمّ شعث البلاد المتفرقة ، والدعوة إلى التعاون والتكاتف ، والتآلف والتناصر تحت شعارات متعددة ، أهمها الجامعة الإسلامية التي تقوم على الشعور بالوحدة العامة بين المسلمين ، والتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين

جميع المؤمنين في جميع البلاد الاسلامية التي كانت ترفرف عليها راية التوحيد والخلافة الإسلامية ردْحاً طويلاً من الزمن ، وتقف قلعة شامخة وصامدة أمام الأعداء .

والهدف من الجامعة الإسلامية أن يعمل المسلمون عملاً منظماً شاملاً لتوحيد صفوفهم ، وأن يسعوا سعياً أكيداً لإحياء الروابط الدينية بينهم ، ووجوب استقلالهم عن الغرب ، وتحررهم من الاستعمار الأجنبي ، والاستغلال الخارجي[1] .

وإن هذه الأهداف السياسية العظيمة تتوقف على التربية الروحية والعقلية والنفسية الصحيحة للشعوب الإسلامية ، تحقيقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، لذلك يجب إصلاح نفوس المسلمين ، وتزكيتها مع بارئها ، واعتزازها بدينها وشرعها ، لتأبى الظلم والذل والضيم ، وتسعى لما قرره الله تعالى من

---

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، محمد حسين ٢٩٨/١ ، جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص٦٢ وما بعدها ، جمال الدين الأفغاني ، محمدعمارة ص١١٣ وما بعدها ، تاريخ الأستاذ الإمام ٣٠٦/١ .

العزة للمسلمين في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] .

وكان من أول الدعاة للجامعة الإسلامية ، وأبرزهم ، وأعلاهم صوتاً ، وأكثرهم حماساً الداعية المجاهد جمال الدين الأفغاني الذي ضحى بنفسه ، وأفنى حياته في سبيل إيقاظ المسلمين من سُباتهم ، وتذكيرهم بدينهم ، وإنذارهم بسوء العاقبة من التشرد والتشرذم والاختلاف والانقسامات ، ودعوتهم إلى الاجتماع والاتحاد ، ولو تعددت الدول ، فلا يشترط للجامعة الإسلامية بينهم أن تقوم دولة واحدة فقط .

وكتب السيد جمال الدين الأفغاني مقالة بعنوان « الوحدة الإسلامية » نشرت في العدد ٩ من « العروة الوثقى »[1] ، فقال :

---

(١) العروة الوثقى جريدة سياسية أدبية ، تصدر كل يوم خميس ، أول عدد يوم الخميس ١٥/٥/١٣٠١ هـ الموافق ١٣/٣/١٨٨٤م ، وكان مدير سياستها جمال الدين ، ورئيس تحريرها الأستاذ محمد عبده ، وصدر منها ١٨ عدداً في ثمانية أشهر ، وكان آخر عدد صدر منها في ٢٦/١٢/١٣٠١ هـ الموافق ١٧/١٠/١٨٨٤م ، ثم توقفت مرغمة لاضطهاد الإنكليز لها وسعيهم ضدها ، وقال الأستاذ محمد عبده : « إن=

« لا التمس أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما يكون عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي مُلك على ملكه ، يسعى بجهاده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات ، هذا آن الاتفاق ، هذا آن الاتفاق ، إلا أن الزمان يواتيكم بالفرص ، وهي لكم غنائم ، فلا تفرطوا »[1] .

= الأفكار في العروة الوثقى كلها للسيد ، ليس لي منها فكرة واحدة ، والعبارة كلها لي ، ليس للسَّيِّد منها كلمة واحدة » تاريخ الأستاذ الإمام ٢٨٩/١ ، وكان ميرزا محمد باقر يترجم لها عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقي (زعماء الإصلاح ص٨١ ـ ٨٢) ولخصت الجريدة أغراضها في أول عدد منها (زعماء الاصلاح ص٨٠) .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، السيد محمد رشيد رضا ٣٠٦/١ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٤٢ ، جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص١١٥ ، انظر : مقاصد العروة الوثقى في تاريخ الأستاذ الإمام ٣٠٦/١ ، وأولها : الجامعة الإسلامية .

ويظهر ذلك في شعار العروة الوثقى « إيقاظ الأمم الإسلامية خاصة ، والمدافعة عن حقوق الشرقيين عامة ، ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوربي ، والجهاد في سبيل الحرية والاستقلال لله تعالى » .

ويقول السيد جمال الدين الأفغاني في الجامعة الإسلامية : « واعتصموا بحبال الرابطة الدينية ، التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية »[1] .

وكان السيد جمال الدين الأفغاني أصدق ممثل للجامعة الإسلامية ، ويريد أن ينضوي المسلمون تحت ظل الخلافة العظمى ، والعمل تحت راية الخليفة الأعظم ، لأنه كان يعلق الآمال العريضة على الخلافة العثمانية ، في المعركة الدائرة بين العالم الإسلامي والاستعمار الغربي ، وأن الجامعة الإسلامية ذات مضمون تحرري من الزحف الاستعماري

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١١٣ ، وجاءت العبارة في المقالة السادسة من العروة الوثقى ، انظر : تاريخ الأستاذ الإمام ٢/٢٥٨ .

الغربي[1] ، ويتساءل السيد جمال الدين الأفغاني قائلاً :

« أنرضى ، ونحن المؤمنون ، وقد كانت لنا الكلمة العليا ، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلاّ ولا ذمة ، بل أكبر همّة أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته ؟؟ »[2] .

ونهض السيد جمال الدين الأفغاني ، وتلميذه محمد عبده للدعوة إلى وحدة المسلمين ، واتحاد كلمتهم ، لتكون الجنسية الإسلامية هي الرابطة بينهم ، فقالا في « العروة الوثقى » في العدد الثاني منها بتاريخ ٢٢/٥/١٣٠١ هـ ، المقالة الثانية ، بعنوان الجنسية والديانة الإسلامية : « إن استقراء حال الأفراد في كل أمة ، واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ، ودقيقه ، وجود تعصب للجنس ، ونعرة عليه ،

---

(١) المرجع السابق ص١٢٣ ، ١٢٥ ، وانظر : تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٣٤ ، ٧٣ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٣٥٦ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص ١٠٣ ، ١٢٤ .

عند الأغلب منهم . . . . ، فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى ، وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به ، اطمأنت في حفظ الحق ، ودفع الشر إلى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها ، فمحي أثرها من النفوس ، والحكم لله العلي القدير ، هذا هوالسر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ، ما عدا عصبتهم الإسلامية ، فإنَّ المتديِّن بالدين الإسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ، ويلتفت من الرابطة الخاصة إلى الرابطة العامة ، وهي علاقة المعتقد ، . . . فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التي لا تميز بين جنس وجنس . . . ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم ، فقد قال ﷺ : « ليسَ منّا من دَعَا إلى عصبية ، وليسَ منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[1] ، . . .

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم مرفوعاً (٢/٦٢٥) ، وانظر كتابنا : الاعتدال في التدين ، بحث =

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين . . . . ، إنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني. . . ، إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامي ، بدون التفات إلى جنسها وقبيلها » إلى أن تختتم المقالة « إن بعض ما يطرأ على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الإسلامية ، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين. . . ، فإذا رجع الوازعون في الإسلام إلى قواعد شرعهم ، وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك ، وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين ، وفقنا الله للسداد ، وهدانا طريق الرشاد »[1] .

= التعصب والعصبية ص١٥١ ، التعصب القومي ص١٥٧ ، التعصب العنصري ص١٥٨ ـ ١٥٩ .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، للسيد محمد رشيد رضا ٢/٢٢٣ ـ ٢٢٧ ، وانظر : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، =

وتقوم فكرة الجامعة الإسلامية عند السيد جمال الدين الأفغاني على الأسس التالية :

١ـ التحرر من الاستعمار ، والتخلص من الزحف الاستعماري الغربي ، وتحرير بلاد المسلمين لتكون مستقلة ، وأبية ، وعزيزة .

٢ـ الجمع بين المذاهب الإسلامية والطوائف المتعددة ، واللقاء بين أتباع الديانات الأخرى الذين يواطنون المسلمين ، ويعايشونهم في أوطانهم وأرضهم ، وفي ذلك مقالات ودعوات ونصوص كثيرة تؤكد ذلك ، لذلك كان كثير من النصارى أتباعاً وتلامذة للسيد جمال الدين الأفغاني[١] .

= للدكتور محمد حسين ١/ ٤ .

(١) نظر المقالة الرابعة من مقالات العروة الوثقى بعنوان « النصرانية والإسلام وأهلهما » نشرت في العدد الرابع في ١٧/ ٦/ ١٣٠١ هـ الموافق ٣/ ٤/ ١٨٨٤م ، في تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، للسيد محمد رشيد رضا ٢/ ٢٣٧ ، وانظر : رأيه في الأديان الثلاثة وأنها متفقة في المبدأ ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٣٧ طبعة دار الفكر ، زعماء الاصلاح ص٦٩ ـ ٧٠ .

٣ـ الجمع بين الدين والقومية ، والحفاظ على القوميات القائمة واللغات السائدة تحت شعار الدين ، ولباس الإسلام ، مع تأصيل العروبة واللغة العربية ، ولذلك ندّد السيد جمال الدين الأفغاني بالأتراك الذين لم يعلنوا اللغة العربية لغة رسمية ، ثم زاد نكيره من دعوى التتريك الهدامة .

٤ـ محاولة الانضواء تحت الخلافة العثمانية القائمة في زمنه ، لأنه لا مانع من تسليم قيادة المسلمين لأي مسلم يلتزم بالإسلام ، ويحكم به ، ويعمل بتعاليمه وأحكامه ، فإن أكرم الناس أتقاهم[1] .

ويرجع السبب لاعتماد الأساس الرابع ما لمسه السيد جمال الدين الأفغاني من دعوة السلطان عبد الحميد الثاني للجامعة الإسلامية ، وحرصه عليها ، وفي ذلك يقول : « أما ما رأيته من يقظة السلطان ، وشدة حذره ، وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوربا ، وحسن نواياه ، واستعداده للنهوض بالدولة ، الذي فيه نهضة المسلمين عموماً ، فقد دفعني إلى مدّ يدي له ، فبايعته بالخلافة والملك ، عالماً علم

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، محمد عمارة ص١٢١ ـ ١٥٦ .

اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوربا ، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها ، وفي الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومي ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم »[1] .

* * *

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٥٠٢ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٥١ .
ألف الأستاذ سمير أبو حمدان كتاباً بعنوان « جمال الدين الأفغاني وفلسفته الجامعة الإسلامية » في ١٩٢ صفحة ، وطبعته الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ١٩٩٢م ، وصنف الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف كتاباً آخر بعنوان « جمال الدين الأفغاني والوحدة الإسلامية » نشر دار ومطابع المستقبل ، بيروت ، مؤسسة المعارف ، ١٩٨٢م في ٥٩ صفحة .

الفصل الخامس

التقريب بين المذاهب

شاعت المذاهب الفقيهة منذ العصر العباسي ، ولم يكن في ذلك غضاضة في الغالب ، كما تعددت الفرق الدينية من العصر الأموي ، ولم يؤد الأمر إلى السوء إلا في النواحي السياسية بين الخوارج وأهل السنة ، وبين المعتزلة أيضاً وأهل السنة ، وانقسم المسلمون إلى سنة وشيعة ولم يؤثر ذلك على العلماء والفقهاء وأفراد الشعب إلا عند الثورات التي تظهر وتخمد من أجل استلام الخلافة والإمامة .

ولكن الأمر تطور في العصور الأخيرة وظهر التعصب المذهبي المقيت الذي وصل إلى الانقسام والعداوة والعصبية المذمومة التي تنخر في عظم الأمة ، وتفتت من وحدتها ، وتضعف من قوتها ، مما دعا المصلحين والدعاة المخلصين إلى العمل للقضاء على هذا التعصب الجديد ، لإخلاص العمل لله تعالى ، والتماس العذر للمخالف ، وأن اختلاف

الرأي في الفروع والجزئيات يجب أن لا يؤدي إلى اختلاف القلوب ، وتفرق الصفوف ، وتناحر الجماعات ، وطعن الأشخاص بعضهم ببعض ، والغفلة عن العدو الحقيقي الذي يتربص شراً بالأمة ، والسكوت عن عمل المفسدين في الأرض .

وقد ثبت أن الأمة المتناحرة داخلياً ، المنقسمة على نفسها ، المتقاتلة مع بعضها ، الحاقدة على أفرادها ، الممزقة صفوفها وفكرها ورجالها لا يمكن أن تخطو إلى الأمام ، ولا يمكن أن تصمد أمام كوارث الحياة ، ولا تقوى أمام الأعداء ، لذلك يجب أن تتوحد الصفوف والنفوس والقلوب ، وأن تتوحد الأهداف والآمال والآلام للإصلاح والتقدم والحضارة[1] .

وهذا ما سعى إليه السيد جمال الدين الأفغاني ، مع أنه كان حنفي المذهب ، كما صرح به تلميذه محمد عبده ، فقال : « أما مذهب الرجل فحنِيفيٌّ (أي على عقيدة التوحيد

---

(١) انظر كتابنا : الاعتدال في التدين ، بحث التعصب المذهبي ص١٦٨ ـ ١٧٣ .

الحنيفية) حَنَفي ، وهو ، وإن لم يكن في عقيدته مقلداً ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم ، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض على مذهبه ، وعرف بذلك بين معاشريه في مصر أيام إقامته بها ، ولا يأتي من الأعمال إلا ما يحل في مذهب إمامه ، فهو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه »[1] .

ولكن السيد جمال الدين كان يرفض التعصب لمذهب من المذاهب التي تفرقت إليها الأمة ، أو التقيد بإمام من أئمة المذاهب في الأمور المهمة والأساسية ، وبين ذلك معاصره وصديقه ميرزا السيد حسين خان التبريزي ، فقال : « وكان كل من يسأل عن دين (مذهب) السيد يجيبه : بأني مسلم ، وحدث أن سأل أحد علماء السنة ، وكان يلقي درساً ، السيد قائلاً : ما عقيدتك ؟ فأجاب : إني مسلم ، فسأله ثانية : من أي المذاهب أنت ؟ فأجاب السيد : إني لم أعرف من أئمة المذاهب شخصاً أعظم مني حتى أسلك طريقته ، وأعاد

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٣٣ ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١/٦١٤ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٣٨ .

السائل مرة أخرى ، فقال له : لقد ادعيت كبيراً ، فأي المذاهب الأربعة يطابق عملك ؟ فأجاب السيد : إني أوافق بعضهم في أمر ، وأخالفهم في أمور »[1] .

يقول الدكتور محمد عمارة : « كان الرجل ينظر إلى كل من يؤمنون بنبوة محمد ﷺ على أنهم أبناء مذهب واحد ، سواء أكانوا يُسَمَّوْن أهل السنة أم من المتكلمين عامة ، أو كانوا من الفلاسفة والحكماء ، فهو يعيب على من يسمون أنفسهم أهل السنة تكفير الحكماء »[2] .

وينقل الدكتور عمارة قول السيد جمال الدين الأفغاني بقوله :

« يدَّعون السنة ، وهم ناصرو البدعة ! وأي بدعة أكبر من تكفير من يدعون الإيمان بما جاء به محمد بعضهم لبعض ، بدون استناد إلى كتاب ولا إلى سنة ، وإنما هو لمجرد أن يقولوا : مذهبه يخالف مذهبنا ! فما بالهم لا ينكرون نبوة نبينا ، لأن الحكماء يقولون بها ؟ والعجب ! أي ضرر في أن

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ، ميرزا لطف الله خان ص١٦٢ .
(٢) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٣٩ ، ٤٠ .

يوافقنا على ما نقول جميع أهل العالم ! بل ذلك ما يحقق غرضنا ، وهو غاية سعي العاقل ، خصُوصاً الذي يدعي أنه من أهل السنة ، ورافض البدعة »[1] .

واتهم السيد جمال الدين بالتشيع ، مع ان له نصوصاً كثيرة تؤكد رفضه للتشيع ، لأنه يرفض الفكرة الأساسية التي قامت عليها فرقة الشيعة ، والتي بدون الإعتقاد بها لا يكون المرء شيعياً ، وهي نظرية « ضرورة وجود الإمام المعصوم الذي هو الحجة على العالمين ، والمعلم للدين » بل يتبنى السيد جمال الدين الأفغاني النظرية المخالفة تماماً ، وهي الاكتفاء بالقرآن والشرع ، وأنهما المعلم ، وأن بلاغ النبوة للدين قد أغنى عن الإمام المعصوم ، وفي ذلك يقول : « كفى بالشرع والإيمان معلماً ، فيكفي ما نَتيقَّنه من القرآن ، فلا حاجة إلى العلم المخصوص ، وهو الإمام المعصوم ، ولسنا نحتاج إلى نائب عن الشرع إلا في مجرد التبليغ ، ثم في الشرع نفسه يكون العلم والأخذ »[2] .

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٤٠ عن التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية ، التعليق ٧١ .

(٢) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٤٠ عن التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية ، التعليق رقم ٧٤ .

ويدين السيد جمال الدين انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، ويرفض أن يكون له مايبرره ، سواء من الفكر الإسلامي أو من واقع الحياة وضرورتها ، ولا يكفي لذلك مجرد المزاعم التاريخية ، كما سبق بيانه ، لذلك يقول : « ظهر لآل البيت النبوي في أوقات وأزمنة مختلفة أحزاب وشيع ، فمنهم من ضل كالمؤلهة ، وهم من يقولون بألوهية علي بن أبي طالب ، ومنهم المفضلة ، والغلاة في محبة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال : « يهلك فينا أهل البيت محب غال ، وعدو قالٍ » ، أما المفضلة من الشيعة ، وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق ، فهذا الجمهور من المسلمين ، لمجرد تقليدهم للإمام جعفر ، ومغالاتهم في حب الآل ، وتفضيلهم للإمام علي ، لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين ، ونجسم أمر هذه الفروق في الفروع ، وصارت واسطة للتفرقة والنزاع ، فللخصام ، فللاقتتال ، تلك الأمور التي سهل وجودَها جهلُ الأمة ، وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم »[1] .

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٣٢٤ ـ ٣٢٦ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٤١ ، ٤٣ ، =

ودعا السيد جمال الدين إلى الوحدة بين المسلمين ، وتعاون المذاهب وتسامحهم ، وكتب تحت عنوان « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » في المقالة الخامسة بالعروة الوثقى[1] : انحطاط المسلمين وسكونهم ، وسبب ذلك ، فقال : « إن للمسلمين شدةً في دينهم ، وقوة في إيمانهم ، وثباتاً على يقينهم ، يباهون بها من عداهم من الملل ، وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض ، ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله ، وما جاء به نبيهم ﷺ كفالة لسعادة الدارين. . . ، يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ماهم فيه مع شدتهم في دينهم. . . فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم ، وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء. . . لا تواصل بينهم ولا تراسل. . . ، كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين. . . ، كثرت بذلك المذاهب

= خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١١٢ ط دار الفكر ، زعماء الإصلاح ص١١٣ .

(١) نشرت في العدد الخامس في ١٤/٦/١٣٠١هـ الموافق ١٠/٤/١٨٨٤م .

وتشعب الخلاف إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان. . . ، وكان الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ، ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك ، بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم ، حتى يكون كل مسجد ، وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ، ويصير كل واحد منهم في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ، ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شؤون وحدتهم ، ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون من مركزه في الأقطار المقدسة ، وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل ، وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها »[1] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٩ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص٨٦ .

ونعا السيد جمال الدين على المسلمين تفرقهم وتخاذلهم ، وإغفالهم عن المنهج ، وجاءت المقالة السادسة من مجلة العروة الوثقى عن : التعصب ، وتحته الآية : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾[1] [الأعراف : ٣] ، وفيها يقول : « نعم إنَّ التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال ، وطرفا إفراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه[2] ، والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه ، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء ، فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهَمَل ، لا يعترف له بحق ،

---

(١) نشرت في العدد السادس في ٢٨/ ٤/ ١٣٠١هـ الموافق ٢٤/ ٤/ ١٨٨٤م ، .

(٢) انظر رأي السيد جمال الدين أيضاً في العصبية ، والتعصب المحمود والضروري لحياة الأمم ، والمذموم منه ، في : خاطرات جمال الدين الأفغاني ، محمد المخزومي ص٢٥٠ طبعة دار الفكر ، ورأيه في التعصب الديني والتعصب الجنسي ، ص ٢٧٠ .

ولا يراعي له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ، ويذهب بهاء الأمة ، بل قد يتقوض مجدها . . . ، وكل قوة لا تخضع إلى العدل فمصيرها الزوال ، وهذا الحد من الإفراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع ﷺ في قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية »[1] ، ثم يتعرض السيد جمال الدين إلى خطر التعصب الديني ، ودعوة الإسلام إلى التسامح الديني ، ثم يدعو المسلمين إلى اليقظة ، فيقول : « فيا أيتها الأمة المرحومة ، هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت ، هذه روابطكم الدينية ، لا تغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشنكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية »[2] .

وجمعت البحوث المتعلقة بالتقريب بين المذاهب في

---

(١) الحديث رواه أبو داود ، وسبق تخريجه ص٧١ .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٨ .

كتاب « دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية » لجمال الدين الأفغاني وآخرين في ١٦٦ صفحة[١] .

* * *

(١) نشر دار الجواد ، بيروت ١٩٦٦م .

الفصل السادس

تحريم الربا والفائدة

الربا حرام بالاتفاق والإجماع ، ووردت النصوص الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية صريحة في تحريمه ، ولعن المتعامل به ، وكل من يشترك فيه ، وأنه من أكبر الكبائر ، ولم يخالف في ذلك مسلم .

ولكن ظهرت بعض الآراء الشاذة التي تقصر تحريم الربا على الربا الكثير ، وأن الربا القليل ، وما يعرف اليوم في المصارف الربوية باسم الفائدة جائز ، ولا يدخل في الربا المحرم .

وكان من أصحاب هذه الآراء الشاذة السيد جمال الدين الأفغاني الذي حصر الربا المحرم فيما يؤكل أضعافاً مضاعفة ، فقال :

« حرم الله الربا بنكتة غاية في الحكمة ، وهي أن لايؤكل أضعافاً مضاعفة ، وهو ما وقع عليه التحريم ، ولكي يكون

للإمام مخرج إذا اقتضت المصلحة في التسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ، ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ، ويصير أضعافاً مضاعفة ، وفرّق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين ، الذين يتظاهرون بتجنب أكل الربا ، ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقة مائة درهم يتجرون بها عند بيعها مع المشتري المضطر بثلاثمائة درهم ، وحقيقة هذا الفرق إن هو إلا نصيب الربا وعينه ، وإنما يجعلونه عن طريق البيع ، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التي حظرها عليهم الدين ، وإليك بعض ما جاء في هذا الشأن من آيات القرآن الكريم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢٧٥ـ٢٧٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] [آل عمران : ١٣٠] .

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص١٩٣ .

والحقيقة أن جمال الدين الأفغاني ، ومن لف لفه ، وسار على منهجه في تحريم الربا فقط إذا كان أضعافاً مضاعفة ، اقتصروا في الاحتجاج على مفهوم المخالفة في الآية الثانية ، وأغفلوا النظر ، أو تغافلوا نهائياً عن بقية النصوص الصريحة القطعية الواردة في القرآن والسنة ، والتي تحرم الربا نهائياً ، سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، ولذلك لما أُرسل كتاب « صيحة جمال الدين » الذي فيه الفتوى السابقة إلى الأزهر ليبدي رأيه فيه ردّه ، ومنع طباعته ونشره ، وأرسل خطاباً إلى إدارة النشر برقم ٧٢٤ في ٣/١٦/ ١٩٦٠م وجاء فيه « إن هذا الكتاب يتضمن افتراء على الإسلام ، وخروجاً على تعاليمه ، ولهذا قررت مشيخة الأزهر الشريف عدم السماح بتداوله »[1] .

والأدلة على تحريم الربا قليله وكثيره صريحة وعديدة ، وسواء أكان القرض استهلاكياً أم انتاجياً فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] ، وهذا من أواخر ما نزل من

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص١٩٤ ، جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٦٥ .

القرآن ، وأن الربا هو كل ما زاد على رأس مال القرض ، دون تمييز بين قليل وكثير ، وقوله ﷺ : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة . . . . ، مثلا بمثل سواء بسواء »[1] .

وهذا يقضي التساوي بين البدلين ، بدل القرض ، وبدل الوفاء ، فلا فضل لأحدهما على الآخر ، والفضل يعني أي مقدار قلَّ أو كثر ، فهو ربا ، وأن الإسلام كل ما حرَّم كثيره حرَّم قليله ، كالخمر والربا[2] .

وأكد جماهير العلماء ، أفراداً وجماعات بتحريم الربا كثيره وقليله ، واعتبروا الفائدة ربا ، وأن موقف علماء والأزهر وغيره ثابت من الفوائد الربوية المحرمة ، ابتداءً من

---

(١) هذا حديث صحيح ، رواه البخاري (٢/ ٧٥٠ رقم ٢٠٢٧ ، ٢/ ٧٦١ رقم ٢٠٦٦ ، ٢٠٦٧) ومسلم (١١/ ٨ رقم ١٥٨٤ باب الربا ، ١١/ ١٣) والأحاديث في ذلك كثيرة في الصحيحين وغيرهما .

(٢) انظر : الجامع في أصول الربا ، للدكتور رفيق المصري ص ٢٥٩ وما بعدها ، أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار ، للدكتور علي أحمد السالوس ، والرد على مفتي مصر سيد طنطاوي ، والدكتور أحمد شلبي ، وعبد الصبور مرزوق ، والعشماوي والدواليبي والناصر ص١٤٧ وما بعدها .

فتاوى دار الإفتاء المصري سنة ١٩٠٠ وحتى الآن ، من ذلك فتوى الشيخ بكري الصديقي مفتي الديار المصرية في ٢٧/ ١/ ١٣٢٥ هـ الموافق ١٩٠٧م ، وفتوى الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية سنة ١٣٤٨ هـ/ ١٩٣٠م ، وفتواه مرَّة أخرى سنة ١٣٦٢ هـ/ ١٩٤٣ م ، وفتواه مرَّة ثالثة سنة ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥ ، وفتوى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، المؤتمر الثاني محرم عام ١٣٨٥ هـ الموافق مايو ١٩٦٥م ، والفتاوى الإسلامية الصادرة من فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر ، فتوى رقم ١٢٥٢ ، المجلد التاسع ص٣٣٣٥ ، ديسمبر سنة ١٩٧٩م ، وأصدرت جبهة علماء الأزهر ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م بياناً أكدت فيه تحريم فوائد البنوك ، وأكد ذلك قرار مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة في دورته الثانية ١٠ـ ١٦/ ٤/ ١٤٠٦ هـ الموافق ٢٢ـ ٢٨/ ١٢/ ١٩٨٥م ، وهو ما أكده أيضاً سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي المملكة العربية السعودية ، وهو رأي جماهير العلماء والمفتين في جميع البلاد الإسلامية ، وهو ما يؤكده أيضاً علماء الاقتصاد والمصارف والبنوك في البلاد

العربية والأجنبية ، ولم يخالف في ذلك إلا عدد ، وهم أندر من النادر ، لذلك كان قولهم شاذاً وغير معتبر في التحقيق والدراسة والتطبيق[1] .

ولذلك نعتبر رأي السيد جمال الدين الأفغاني في الربا عامة ، والفائدة خاصة ، رأياً شاذاً لا يؤخذ به ، ولا يعتمد عليه ، وخاصة بعد أن ظهر للوجود ـ والحمد لله ـ المصارف الإسلامية التي انتشرت في العالم الإسلامي وخارجه وتجاوزت ١٨٦ مصرفاً ، ولا تتعامل بالربا ولا بالفائدة المصرفية ، وتلتزم تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء في المعاملات ، والاستثمار ، والنشاط ، وتحت مظلة هيئات الرقابة الشرعية في كل مصرف .

* * *

---

(١) انظر مجموع المقالات والفتاوى والقرارات في ذلك ، المنشورة في مجلة الاقتصاد الإسلامي التي تصدر بدبي ، العدد ١٩٣ السنة ١٦ ، ذو الحجة ١٤١٧ هـ/ أبريل ١٩٩٧م ص٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٩ وما بعدها ، ٦٥ .

الفصل السابع

موقف السيد جمال الدين الأفغاني من الاشتراكية

إن العدل والكفاية من القيم المثلى ، والمبادىء الإنسانية الفطرية ، فالظلم ينفر منه الطبع السليم ، وتأباه النفوس البريئة ، وتسعى لرفضه والتخلص منه ، وحرص الإنسان على كفايته من الطعام والشرب والغذاء والملبس والمسكن مغروس في جبلته ، ويسعى إليه بفطرته ، فإن جاع أو عري بحث عما يدفع غائلة الجوع ، ويستر الجسد ، وكان الفقر طامَّة كبرى ، ووباءً قاتلاً ، ومشكلة فردية واجتماعية .

وكان من أول مبادىء الإسلام وأهدافه تأمين العدل واجتثاث الظلم ، وتأمين العيش الكريم ، ومحاربة الفقر ، حتى ورد أنه كاد الفقر أن يكون كفراً ، وساد العدل والكفاية المجتمع الإسلامي بشكل مثالي في العصور الأولى ، وبقي تطبيقهما على مستوى رفيع طوال التاريخ الإسلامي ،

ولا نزال نلمس الآثار حتى اليوم بين المسلمين مع غياب الشريعة عن التطبيق والحياة .

وكان الأمر على عكس ذلك في سائر العالم ، وخاصة في أوربا ، فساد الظلم وانعدم العدل في الحقوق ، وانتشر الفقر في عهد الإقطاع والرأسمالية ، وظهر التفاوت الطبقي ، واستغلال العمال والفقراء والطبقات الكادحة ، وعاشوا في مستوى الفقر ، وخاصة بعد الثورة الصناعية في أوربا ، ولذلك ظهرت الشيوعية والأفكار الاشتراكية كرد فعل من جهة ، وللمطالبة بالعدل والكفاية والديمقراطية (الشورى) في المشاركة بالحكم من جهة أخرى ، وكادت تسيطر على الفكر الغربي ، وخاصة في ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، وفتن الكثير فيها ، وشغل بال المفكرين .

وتسربت هذه الأفكار بعجرها وبجرها إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر ، وعرضت على السيد جمال الدين الأفغاني فكشف خفاياها ، وبيَّن بواعثها والظروف التي نشأت فيها ، والنتائج الخطيرة والمدمرة التي ستؤول إليها ، وحذّر من الاشتراكية الغَرْبية ، ثم عرض البديل الإسلامي في الاشتراكية الإسلامية ، والقيم العربية حتى في الجاهلية ،

والعدالة الاجتماعية في القرآن والسنة ، فكان للسيد موقفان متميزان ، يظهر عليهما مبدئياً التناقض وهو محاربة ومهاجمة الاشتراكية الغربية ، وقبول الاشتراكية الإسلامية والدعوة إليها ، والحرص عليها ، وهاك التفصيل .

أولاً : موقفه من الاشتراكية الغَرْبية :

في أحد الأيام سأل أحد كبار الأدباء في تركيا السيد جمال الدين قائلاً : « إن خير ما في أوربا من النهضة هو السوسيالست (الاشتراكية) ، وهذه النهضة هي التي ستؤدي حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل » .

فقال السيد جمال الدين :

« إن ما تراه من الاشتراكية في الغرب ، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب ، في شكلة الحاضر وأسسه ، وتخبط واضعي مبادئه ، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع »[1] .

« والاشتراكية الغربية ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٢٠ طبعة دار الفكر .

الانتقام من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد في العمال لأرباب الثراء ، الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم في الخزائن ، واستعملوا ثرواتهم في السفه ، وبذلوها في السرف والتبذير والترف على مرأى من منتجها ، والفاعل العامل في استخراجها من بطون الأرض ومن ترابها . . . . الخ ، وبالاختصار ثمرات عمل العمال بكل أنواع حاجة العمران »[1] .

« فكل عمل يكون مرتكزاً على الإفراط لا بد أن تكون نتيجته التفريط ، أفرط الغربيون (الأغنياء) في نبذ حقوق العمال الفقراء وراء ظهورهم ، فأفرط العمال بمناهضة أهل الثراء وغاصبي حقوق الأمة ، بالمناصب ومسببات الجاه ، فلا قاعدة دينية يرجع إليها ، ولا سلطان وازع يعمل بقهرٍ لصالح المجموع ، لذلك أصبح أمرهم في الاشتراكية « فوضى » ، ولسوف ينعكس أمرها »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، وانظر : زعماء الإصلاح ص١١٤ .

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، محمد المخزومي ص١٢٠ طبعة دار الفكر ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٩٧ ،

هذا هو رأي السيد جمال الدين الأفغاني بالاشتراكية الغَرْبية ، أو الشيوعية الشرقية ، التي بهرت أعين الناس رَدْحاً من الزمن ، وقامت على صراع الطبقات ، وسفكت الدماء ، وارتكبت المجازر الرهيبة ، وأسالت الدماء حتى وصلت إلى الحكم بعد وفاة السيد جمال الدين ، وعاشت مع الإرهاب والإكـراه ، والقلـق والاضطـراب ، وأدت إلـى التخلـف والسلبية ، وثبت فشلها ، ثم زالت أخيراً من الوجود ، وسقطت عروشها ، وخبا بريقها ، وانطفأ نورها ونارها ، فكانت مثل خضار الصيف ، تظهر أول الربيع ، وتنتشي ، وتثمر وتزهو في الصيف ، ثم تقيض وتضمر وتذبل في الخريف لتلفظ أنفاسها الأخيرة ، لأنها كانت كما قال السيد جمال الدين الأفغاني مجرد ردّ فعل للإقطاع والاحتكار واستغـلال أربـاب العمـل للعمـال الكـادحيـن ، وجنـوح الرأسمالية القاسية الرهيبة على الأفراد والشعوب ، والفقراء والجماهير ، فكانت الثورات الدموية ، والاعتماد على صراع الطبقـات فـي المجتمـع ، ومحـاربـة الفطـرة الإنسـانيـة فـي

= جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص١٩٥ ، جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٦٠ .

التملك ، وقتل الحوافز الفردية والمادية ، فآلت للزوال .

ثانياً : الدعوة إلى الاشتراكية الإسلامية :

لم يقتصر موقف السيد جمال الدين على رفض الاشتراكية الغربية والشيوعية الشرقية ، وتفنيد مبادئها ، بل قدَّم البديل الذي ينسجم مع واقع المسلمين وحياتهم وأفكارهم وعاداتهم ، وقيمهم ، وتاريخهم حتى قبل الإسلام ، وينطلق من عقيدتهم ودينهم ، ومن مبادىء القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وسيرة السلف والخلفاء ، وسلوك الأثرياء المسلمين في مواساة الفقراء والمساكين ، وفرض القرآن حقاً لهم في أموال الأغنياء ، فقال السيد :

« أماالاشتراكية في الإسلام فهي ملتحمة مع الدين الإسلامي ، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية » .

« أول من عمل بالاشتراكية ـ بعد التدين بالإسلام ـ هم أكابر الخلفاء من الصحابة أيضاً ، وإليك البيان » .

« أما أن الاشتراكية من خلق البداوة ، فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم ، ومواساتهم لأهل قبيلتهم

وعشيرتهم ، ولا أعْدُ كثيراً من ذلك ، بل اجتزىء بمن اشتهر منهم : مثل حاتم الطائي في السنين المجدبة ، وكيف أنه نحر أعزَّ ما لديه ، وهو فرسه لمجرد مجيء امرأة من أقصى قبيلة طيء إذ قالت له : يا حاتم ، قيل لنا : إن عندك لحماً عبيطاً ، فأتيت بقصعتي ، فقال : صدقت ، ثم نحر فرسه ، وأشعل ناره . . . ، هكذا فعل حاتم ، وهناك رجل آخر من رجال العرب ، وهو طلحة الطلحات ، كان شأنه أن كل أعرابي معدم يأتيه فيقول له : دونك الفرس والرمح والسيف ، فعسى أن تكتفي بها عن ذل السؤال ، ويقال إنه جهز على هذا المنوال ألف فارس ، ولم يبق عنده إلا مثل ما أعطى لواحد منهم ، فكان كل فارس ممن جهزهم طلحة إذا أتاه غلام سماه طلحة ، فلم يمض كثير من الزمن إلا وكان في تلك القبائل من أسماء أبناء أولئك الآباء مئات من ذلك الاسم ، فسمى بذلك طلحة الطلحات »[1] .

« هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ، ومنه يعلم أن الثروة كانت ، وما تزال ، موجودة في الأفراد ، ولكنْ حسن

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٢٠ ـ ١٢١ .

استعمالها ، وجعل نصيب للآخرين فيها يجعل الاشتراكية أمراً مقبولاً ، وصفةً ممدوحة ، إذ لا أنانية ، ولا أثرة ، ولا استطالة على الفقير بخيول مطهَّمة ، يستأثر بها ، ولا بطعام شهي يلتذ به مع لفيفه ، ولا ببناء شاهق يسكن فيه ، بينما موجد ومسبب ومهيىء تلك النعم كلها ذلك العامل الفقير الذي يسكن كوخاً حقيراً ، نصف أعضائه وأبنائه في خارجه ، عرضة لصبارة القر ، وأوارة الحر ! لايملك من القوت خبزاً كافياً ، ولا من الملبس ما يستر به تمام العورة » .

« هذا ما عليه أهل الثروة ، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية ، وفي نفيرهم روح الانتقام ، والإفراط في المطالبة بحقهم ، يقابله التفريط في عدم الخضوع لما يطلبونه من الحق ـ ولسوف يتفاقم الخطب ، وتعم من جراء ذلك البلوى في الغرب ، ولا يسلم منها الشرق » .

« أما الاشتراكية في الإسلام ، فهي خير كافل لجعلها ناقية مفيدة ، ممكنا الأخذ بها لأن الكتاب الديني ، وهو القرآن أشار إليها بأدلة كثيرة ، منها :

« أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب « الحمدُ لله ربِّ العَالمين » فيعلم أن للخلق رباً واحداً ، وهو مع سائر

الخلق من المربوبين على السواء » .

« ويرى ويعلم أن القرآن قد خاطب أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة آمراً ومعلماً ومبيناً حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك معهم ، ليكون لهم من ذلك الجهاد نصيب ، فقال . ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٤١] ، إلخ » .

« هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهداً ومخاطراً بحياته أن يكون مشتركا معه في نتيجة غزواته وغنائمه ـ من لم يكن مشتركا فعلاً ، فأعطى أولاً لله نصيباً ، ومرجع ذلك النصيب لعباده ، وجعل لليتامى نصيباً ، ثم وسع نطاق الإشتراكية ، فقال : « والمساكين » ثم رأى أن يأخذ نظاماً أوسع ، فقال : « وابن السبيل » أي عابره ، فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية ، لم يكن أوسع منه شكلا ، ولا أنفع ، كل ذلك نراه مبنياً على حكمة الاشتراك » .

« وقد لبث حكم هذه الآية جارياً ، وكان الرضا به شاملاً لمجموع المسلمين من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة » .

« ثم جاء في موضع آخر من الكتاب تفريعاً لمن يكتنزون

الذهب والفضة ، ثم حبذ ، وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ، ولو كان بهم خصاصة » .

« نعم ، إن الإخاء الذي عقده النَّبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، لهو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولاً وعملاً . . . ، ولو تطلع الإنسان منا اليوم ، وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة ، لرأى من مجالي الاشتراك روحاً وجسداً ، ما ينبهر له عقله ، ولصح اعتقاده . . . ، ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون »[1] ، وينتقد السيد جمال الدين الاشتراكية المتطرفة ، وأنها ستؤدي حتماً إلى الضرر المحض ، فيقول :

« ولما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادىء ، له طرفان ، وخير الأمور أوساطها »[2] .

رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق ، وشقاء فريق آخر ، في محيط واحد ، وبمساع ليس بينها وبين مساعي الآخرين

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص ١٢١ ـ ١٢٣ .

(٢) هذا جزء من حديث رواه البيهقي (٣/٢٧٣) وله ألفاظ مختلفة ، وروايات عدة ، انظر كتابنا ، الاعتدال في التدين ص٢٠٤ وما بعدها .

كبير تفاوت . . . ، وكان النَّبي ﷺ « بالمؤمنين رحيماً » فجاءه عن طريق الوحي ، لتمحيص نزعات النفس البشرية ، وما عسى أن ينجم من المضارّ والمنافع لها ، بيان لأركان الدين الخمسة ، ومن تلك الأركان فرض الزكاة في المال والركاز والأنعام إلخ ، ثم أضاف إليها ماسبق غنائم الحرب . . . ، ثم حرض على الصدقات ، وحرم الربا ، وحث على ذلك كثيراً . . .» ويتوسع السيد جمال الدين بالأدلة والأمثلة التاريخية والنصوص الشرعية .

ثم يقول السيد جمال الدين : « جاء الإسلام ، فكان أكبرهم منصباً ، وهو الخليفة لرسول الله يعمل بسيرة نبيه في الاكتفاء بالقليل من العيش ، والكفاف منه ، ومجالسة الفقراء ، ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك في مظاهر الحياة الدنيا ونعيمها »[1] ، ويؤكد السيد هذه الصورة في زمن الفتوح وازدياد الأموال والغنائم في زمن أبي بكر الصديق ، والفاروق عمر بن الخطاب ، وخلافة عثمان بن عفان وظهور أهل الثراء والثروة ، وما تنبه له أبو ذَرّ الغفاري رضي الله عنه ، وحذر منه ، إلى أن يقول السيد :

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٢٣ وما بعدها .

« هذا مختصر ما علم به الدين الإسلامي من الاشتراكية المعقولة ، النافعة للمجموع الإنساني ، وما عمل به أكبر خلفاء الإسلام ، وكل اشتراكية تخالف في روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام التي سبق ذكرها ، فلا تكون نتيجتها إلا ملحمة كبرى ، وسيل دماء ، ولا سيل العرم من الأبرياء ، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شيء ، ينتفع به أحد من الخلق ، نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشتراكية ، ويجعلها أحبولة صيد ، وهي كلمة حق يُراد بها باطل ، أكرر القول : إن اشتراكية الإسلام هي عين الحق ، والحق أحق أن يتبع »[1] .

وهكذا يصف ، ويتنبأ ، بما وقعت به الاشتراكية والشيوعية في أوربا والشرق والعالم ، ويدعو للحق في الإسلام وإذا تجاوزنا الوقوف عند مجرد الاصطلاح « الاشتراكية في الإسلام » و« اشتراكية الإسلام » فإن ما بينه السيد جمال الدين لأحكام الإسلام هو الحق والحقيقة ، وهو الواقع ، لأنه دين الإنسانية ، وهو للناس جميعاً ، وللحفاظ

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٢٩ ـ ١٣٠ .

عن حقوق الإنسان وكرامته ، وتأمين معيشته وكفايته ، وهو دين العدل الذي يمنع الظلم والاستغلال والاستبداد من أرباب العمل للعمال ، ويفرض الزكاة والنفقات والصدقات على الأغنياء والموسرين ، كي لا يكون المال دُولَة بين الأغنياء فقط ، كما أن الإسلام يمنع المصادرة وسلب الأموال ، ونزع الملكية ، والمتاجرة بملكية الشعب والأمة والدولة ، ليقوم نفر جديد حاكم بالاستغلال والاستبداد والثراء الفاحش المحرم باسم الشعب والطبقة الكادحة والعمال المسحوقين والمحرومين والمضطهدين ، وعن طريق صراع الطبقات .

الجمع بين الموقفين :

حاول فريق من الكتاب التمسك بالشطر الأول من كلام السيد جمال الدين الأفغاني في نقده للاشتراكية ، وردها ، وتفنيد مسوغات وجودها ، واستعانوا على وصف الأفغاني بأنه من دعاة الاقتصاد الحر أو الفردي أوالرأسمالي بما ورد في كتابه « الرد على الدهريين » الذي كتبه بالهند سنة ١٨٨٠م للرد على دعوة عملاء الإنكليز بدس السم والإلحاد والشيوعية والاشتراكية في صفوف الهنود بقصد نبذ الأديان ، لتحل

الشيوعية محل الإسلام ، فهاجمهم ورد عليهم .

ولكن ظهرت روحه الاشتراكية ، أو بعبارة أدق « العدالة الاجتماعية » في كتابه ، « الخاطرات » وهو آخر ما أملاه على تلميذه ومريده محمد المخزومي باستانبول ، ويمثل آخر ما وصل إليه فكره حتى وفاته ، وأنه شديد الاهتمام بالمواقف الاجتماعية ، والانحياز إلى جانب الناس الكادحين والبسطاء ، ودعوته لرفع الظلم عنهم ، ووجوب تطبيق العدل المطلق ، والعدالة اللازمة عليهم وإنصافهم ، وأداء الحقوق لهم .

وتؤكد حياة السيد جمال الدين وفكره وقوفه إلى جانب الشعب العامل ، وانحيازه عن القلة المالكة الغنية الطاغية ، وتأييده جماهير الفقراء والمستضعفين ، مما دفعته لتبني « اشتراكية الإسلام » أو العدالة الاجتماعية ، مع مهاجمة البذخ والترف والسرف من بعض الأغنياء ، حتى يرى فيهم سلاسل وأغلالاً قد وضعت في أعناق المسلمين ، فيقول : « إنّه ما أقعد الهمم عن النهوض إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ، ولين في المضجع ، وتطاول في البنيان ، وتفاخر في الخدم والخول ، ولا يراعون

في حرصهم ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ، ورسم متبوع ، ينتمون منه بالاحتفال لهم في المواسم والأعياد ، وهز الرؤوس وثني الأعطاف ، تعظيماً وتبجيلاً ، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات ، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالاً »[1] .

ويقف السيد جمال الدين في وجه قيصر روسيا ، يهدده بعبارة « الشعب العامل » وأن « الاشتراكية هي التي ستؤدي حقاً مهضوماً لأكثرية الشعب العامل »[2] .

كما يؤكد السيد أهمية العامل والفلاح ، فيقول : « لولا الزرع ، ولولا الضرع ، لما كان سرف الأغنياء ، ولا ترف الأمراء ، وموقف الزراع والصناع من الحضارة أنفع من موقف الإمارة ، رأينا شعباً يعيش بدون ملك ، ولكن ما رأينا ملكاً يعيش بدون شعب »[3] .

ويزداد حماس السيد جمال الدين عند مخاطبة شاه إيران

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٣٤٤ ، ٣٤٥ .
(٢) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٨٩ .
(٣) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص٤٣٤ .

ناصر الدين ، فيقول له : « الفلاح والعامل والصانع في المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك ، ومن أمرائك . . . ، لا شك يا عظمة السلطان أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون أمة ورعية ؟ ؟ ! »[1] .

وهذه المواقف تدل على سعة أفق السيد جمال الدين ، وجمعه بين الثقافة الإسلامية ، والثقافة الغربية ، وأنه حريص على الإصلاح ، ومنع الفساد في بلاد الإسلام ، وفي العالم أجمع ، وأنه كان يرى الأبعاد الكاملة للاشتراكية الغربية ، وينادي بتطبيق الإسلام لقلع بذور الفساد من أصوله ، وإصلاح الأفراد والمجتمع والأمة .

* * *

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٤٧٥ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، للدكتور محمد عمارة ص١٩٨ وما بعدها .

الفصل الثامن

العروبة والإسلام

إن المبادىء والقيم لها طرفان ووسط ، وخير الأمور أوساطها ، والطرفان إفراط وتفريط ، وغلو وتقصير ، وبناء على ذلك ظهر في التاريخ الإسلامي ، وعلى هامشه ، دعوى الشعوبية والقومية ، فالشعوبية أرادت الطعن في العروبة كرها بالإسلام . ودعاة القومية العربية تعصبوا لها للتهرب من الإسلام .

وكان العقلاء والمصلحون والمفكرون والعلماء طوال التاريخ الإسلامي يوازنون في الأمور بدون إفراط ولا تفريط ، ولا تعصب ولا تضييع ، ويدركون التلازم الأساسي بين الإسلام والعروبة ، ومن هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني الذي مجّد العروبة ، واعتنق الإسلام ، وكان له موقف متميز في ذلك في جميع حياته وأفكاره ، وواجه التطرف في الأمر ، ودعا لوضع الأمور في نصابها ، معتمداً على الأدلة الذاتية

لآداب العروبة ونصوص الإسلام ، ومستعيناً بأحداث التاريخ الناطقة ، وآثار الفتوح الإسلامية في العالم .

وكان فكر السيد جمال الدين الأفغاني ناضجاً وواضحاً ، ويزاوج بين الإيمان بالأفكار القومية التي لا يمكن الانسلاخ عنها ، والنظرة الإنسانية والأممية في السلوك والتفكير ، للتوفيق بين الفكر القومي والاسلام العالمي ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات : ١٣]

يؤكد السيد جمال الدين الأفغاني أهمية القومية عامة ، ويركز على العروبة خاصة ، فيقول : « إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها . . . ، والأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل وبرهان »[1] .

وكان السيد جمال الدين مفكراً وعالماً مسلماً يصدر في تفكيره وسلوكه عن تعاليم الإسلام ، واستقر رأيه أخيراً بعد

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٥٧ .

التجارب والتطواف في البلاد إلى الإيمان بالازدواج بين الفكر القومي والعقيدة الإسلامية العالمية ، مع تغليب الخصائص العالمية في الإسلام على مجرد الانتماء القومي عامة ، والقومية العربية خاصة ، وكان السيد متميزاً في عصره بهذه النظرة ، على الرغم مما ساد العالم في القرن التاسع عشر من صراع بين الأديان والقوميات ، وظهور الدعاة المتطرفين للقومية التركية والقومية العربية ، وكانت الدعوات القومية تصطدم اصطداماً عنيفاً بالعقائد الدينية السائدة[1] .

وأيقن السيد جمال الدين ـ بعين البصيرة ـ أن التزاوج بين الإسلام والتفكير القومي هو الأمر الطبيعي والمناسب لمصالح الشعوب ، وآمال المسلمين ، ونادى بالتضامن القائم على الاعتبارات العنصرية التي تنهى عن الإفراط في التعصب القومي الممقوت ، والمنهي عنه في الحديث الشريف : « ليس منّا من دعا إلى عصبية »[2] ، وذلك يتفق مع الإسلام ، لذلك نقل شكيب أرسلان عن السيد جمال الدين قوله :

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه ص ٧١ .

« ينبغي لكل أمة أن تتمسك بجامعتها القومية في صدر أبنائها ، وأن ذلك لا ينافي الإسلام »[1] .

ويحدد الأفغاني العناصر والمؤثرات والخواص التي تجمع الأمة من الناحية الطبيعية والواقعية والمادية ، وهي اللسان ، والأخلاق ، والعوائد ، والإقليم ، والدين ، فيقول : « وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام مسيرة ، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم ، بمعنى الغيرية المطلقة ، فمتى تمَّ لقوم في سكان الأرض أو لأهل إقليم أو مصر تلك الجوامع أو الخواص الخمس المميزة ، وحصلت المساواة بها ، بين العموم منهم ، وتأثروا بمؤثراتها ، أصبحت دعوى الكفاءة بينهم ميسورة ، والتمييز أو تعيين الأفضلية غير ميسور »[2] .

وهكذا يجمع السيد جمال الدين الأفغاني بين عالمية الإسلام ومجال الفكرة القومية بدون تعارض ولا تناقض ،

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، شكيب أرسلان ١/١٥٩ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٦٣ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٤٢٨ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٦٦ .

ويدعو للجمع والتنسيق بين شعارات : القومية ، والجامعة الإسلامية ، والخلافة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي ، ويرى أن دائرة الإسلام أوسع من دائرة القومية التي هي أكثر خصوصية ، وأضيق نطاقاً[1] .

ويركز السيد جمال الدين على أهمية اللغة أو اللسان ، الذي يمثل آداب الأمة ، ويحذر من العبث باللسان واللغة ، فيقول : « يجب أن نعلم أن عوامل غريبة ومهلكة ، تبدو في أول مظاهرها خفيفة الوطأة ، سهلة المأخذ ، لا ضرر من التسامح بها ، وهي أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم ، والتدرج بقتل التعلم القومي. . . ، وأن المجد كلَّ المجد لذلك الشرقي الخامل أن ينفر من سماع لغته ، وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها ، وأن ما تعلمه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية. . . » .

ثم يقرر السيد كلمته الخالدة فيقول : « إنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آدابَ لهم ، ولا عزَّ لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٦٤ ، ١٦٥ .

وتحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم ، وتنسج على منوالهم »[1] .

ويؤكد السيد جمال الدين الأفغاني أن لكل لغة آدابها ، وهذه الآداب هي منبع الأخلاق للمتحدثين بها ، فيقول : « إن لكل لسان آداباً ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق . . . »[2] .

ويضرب مثالاً لذلك بآداب اللغة العربية ، وأثر ذلك في نشر الإسلام ، فيقول : « فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم وبشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم أحكامه ، والعمل بآدابه ، وذلك ما تمّ ، ولا يتم إلا باللسان ، وهو أهم الأركان »[3] .

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٣٩ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٧٢ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٢٢٤ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٧٢ ، جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ١٥٦ ، جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص٢٠٧ .

(٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٢٢٤ ، وانظر : =

ويؤكد السيد أن مكان اللغة العربية في الإسلام ، هو مكان اللسان من الإنسان ، فهو وسيلة الإدراك والفهم ، فيقول : « اللسان العربي لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر »[1] .

ثم يبين السيد أن اللغة العربية هي أعز الجامعات ، وأكبر المفاخر للعرب غير المسلمين ، فيقول : « وكان اللسان العربي لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات ، وأكبر المفاخر للعرب غير المسلمين »[2] .

ويبين السيد تأثير آداب اللسان العربي ، فيقول : « أما انتشار اللسان العربي فيما عدا بلادهم ، فليس للفاتحين أدنى

= جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٧٢ ، جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٥٦ ، جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص٢٠٧ .

(١) الأعمال الكاملة جمال الدين الأفغاني ص٢٣٦ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٧٦ ، جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص٢٠٦ ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ص١٥٣ طبعة دار الفكر .

(٢) الأعمال الكاملة ص٢٣٦ .

دخل فيه ، ولا اتخذوا له أسباباً ووسائل ، بل إن ما وجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة ، والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذي أحله من الانتشار هذا المحل ، حتى إن العرب قبل الإسلام ، وهم في تلك الحالة الجاهلية ، والبداوة المحضة ، وبعدهم عن كل حضارة ، كانوا يَحِلُّون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنو شروان ، محلاً رفيعاً ، ويأخذون الجوائز ، ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم ، بآداب سلوكهم ، وما يجري على ألسنتهم من الحكمة التي تأخذ بمجامع القلوب ، هكذا كان الذكاء العربي الفطري المتوقد يناسبه سلامة اللسان وآدابه . . . ، وأما في الحضارة الإسلامية ، وفي دولها ، فكثير ممن برع بالأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة ، وأما من أثرى بجوائز الخلفاء والملوك من الآدباء فلا يعدون كثرة »[1] .

ويندد السيد جمال الدين بمحاولة الأتراك لتتريك العرب ، ورفض الاستعراب ، ويقول : « لو أنصف الأتراك

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني في ص٦١ طبعة دار الفكر ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٩١ .

أنفسهم ، وأخذوا بالحزم ، واستعربوا ، وترأسوا ذلك الملك ، وعدلوا في أهله ، وجروا على سنن الرشيد أو المأمون على الأقل ، ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين ، فما كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ، وأعز جانباً ، وأمنع حوزة. . . »[1] ، إلى أن يقول : « فالأتراك أهملوا أمراً عظيماً ، وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح ، وأحب أن يعمل بها السلطان سليم ، وهي جعل اللسان العربي لسان الدولة العثمانية ، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ، ليفقهوا أحكامه ، ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ، ومحاسن عوائد أهله. . . ، ولقد قام السلاطين من آل عثمان بفتوحات جليلة ، وقربوا إليهم من كان في عصرهم من فحول العلماء من المسلمين ، وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربي

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، محمد المخزومي ص١٥٣ طبعة دار الفكر ، الأعمال الكاملة لجمال الدين ص ٢٣٦ ، وانظر الأفغاني عمارة ١٨٠ .

الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٢٣٦ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٨٠ .

وبعض علومه ، وعرفوا أولئك الفحول قدر اللسان العربي ، وغالوا في التقدير حتى أنهم كانوا ـ على ما قيل ـ لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ « قاموس الفيروزا بادي » العربي »[1] .

وذكر المخزومي مشاعر السيد جمال الدين ، فقال : « كان أول نقد وجهه السيد إلى الترك ، وأول شيء لاحظه عليهم ، عدم قبولهم للغة العربية ، ومحاربتهم إياها ، وأنهم لا يحسنون غير الحرب ، ومن ذلك قوله : إن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير الحرب ، وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص بشؤون العمران أقل روية وعملاً من سواهم ، ويسوؤني ـ وأنا ممن يحبُّهم وأتأثر ـ كلما افتكرت فيما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي ، وأزدادُ تأثراً إذ أراهم يرتكبون خطأ أفضح ، وهو جريهم وراء تتريك العرب ، واستبدال اللسان التركي باللسان العربي ، لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر »[2] .

ويقول السيد جمال الدين : « لننظر في فتوحات الدول

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص ١٥٦ .

(٢) جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص٢٠٦ ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ، محمد المخزومي ص١٥٣ طبعة دار الفكر .

العثمانية للممالك الإسلامية من مصر والشام. . . ، فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب ، وكان لجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم العثماني ، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها ، وعملت من عهد السلطان محمد الفاتح ، أو السلطان سليم ، باتخاذ اللسان العربي ، وهو لسان الدين ، لساناً رسمياً ، وسعت بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكانت في أمنع قوة ، وآمن حصن من الانتقاض والخروج على سلطانهم ، ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت في تتريك العرب ، وما أسفهها سياسة ، وأسقمه من رأي ، لأن تديّن الأتراك بالدين الإسلامي ، على جهل باللسان العربي ، جعل في القلوب منزلة ـ ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين ، فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعي النفور والانقسام بالتركي والعربي ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما في اللسان من معنى ، وفي الدين الإسلامي من عدل. . . ، لكن مع الأسف كان عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربي خطأ بيناً »[1] .

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٥٧ ، ١٥٨ .

وهكذا تظهر العروبة والإسلام بشكل واضح جلي في فكر السيد جمال الدين ، بما لا يخالفه مسلم في ذلك ، ثم تجاوز الفكر إلى معالجة الأمراض والأخطاء ، والدعوة إلى تصحيح المسار ، والرجوع عن الخطأ .

ويلخص الدكتور محمد عمارة ذلك فيقول : « وهكذا تآخى « الإسلام » و« العروبة » في فكر الأفغاني ، السياسي والحضاري والقومي ، فهو قد سعى إلى إيقاظ الشرق ، وتجديد الإسلام ، وتضامن المسلمين ، وجاهد كي يحرك أمة الإسلام تحت أعلام « الجامعة الإسلامية » ، لكنه أبصر دور العرب القائد في هذا المحيط الإسلامي الكبير ، فالمسلمون « أمة » تجمعهم « عقائد » وتوحدهم « مصالح » وتواجههم « تحديات » ، وفي إطار هذه الأمة توجد « القوميات » الإسلامية ، بمثابة « الجزر القومية » في « محيط الإسلام » ، وبين هذه القوميات يمثل العرب ـ لدورهم التاريخي ، ولطابع الإسلام العربي ، ولإمكانياتهم الحضارية والبشرية ـ القيادة المأمولة ، حتى لمن يطمح ويعمل لإحياء الإسلام ، وتجديد حياة المسلمين ، فلا تناقض ما بين « الإسلام » و« العروبة » بل لعلها « الوحدة

العضوية » تجمعهما على النحو العبقري الذي دعاه جمال الدين الأفغاني »[1] .

ويعمم السيد جمال الدين الأفغاني انتشار العروبة والتعرب ، فيقول : « ومع ذلك نرى أن كل من دان بالإسلام ، أو رضي بدفع الجزية ، قد سارع عن طيب خاطر ، وارتياح عظيم للتعرب »[2] .

* * *

(١) جمال الدين الأفغاني ، الدكتور محمد عمارة ص١٩٣ـ١٩٤ .
(٢) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، محمد المخزومي ص٥٦ طبعة دار الفكر .

الفصل التاسع

الدعوة للتحرر من الاستعباد والاستعمار والاحتلال

ابتلي العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر بالاستعمار الغربي ، ونكبت البلاد بالاحتلال الأجنبي الذي قصد القضاء على الإسلام ، ونقض عقائده ، وتعطيل شرعه أولاً ، واقتناص الثروات والخيرات ثانياً ، واستعان بالعملاء والأذناب من الحكام والعسكريين وبعض الكتاب والأدباء ، فسمم الأفكار ، وبث التفرقة بين أفراد الشعب ، وحط بكلكله على النفوس ، ونال من أفراد الشعب ، واضطهد العلماء والمفكرين والدعاة ، حتى استقر له الاحتلال ، ونام الناس في سُبات من الخمول والجهل والتمزق والفقر والتخلف والجمود .

وقام الدعاة والمخلصون لإنهاض الهمم ، والدعوة إلى

الثورة على المحتل ، وايقاظ الشعب ، وايقاد روح الجهاد والكفاح والنضال ضد المغتصبين والمحتلين ، وكان في طليعتهم السيد جمال الدين الأفغاني ، حتى عرف بأنه باعث نهضة الشرق ، أو موقظ الشرق .

عاش السيد جمال الدين الأفغاني خلال فترة مظلمة ، كشرَ فيه الإنكليز والفرنسيون والمستعمرون عن أنيابهم ، لينالوا جميع البلاد العربية والإسلامية وسائر الشرق ، ففي عام ١٨٣٠م وطأت أقدام فرنسا أرض الجزائر ، واحتل الإنكليز عدن عام ١٨٣٨م ، وهزم الإنكليز الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا عام ١٨٤١م ، وأشعل الفرنسيون المعركة الطائفية في لبنان عام ١٨٦٠م ، ليتذرعو بالتدخل والحماية ، وتمكن الإنكليز من بلاد الأفغان عام ١٨٦٨م ، وكانت شبه القارة الهندية ترزخ تحت نير الإنكليز ، ويطمع الإنكليز بالسيطرة على جنوب إيران ، لتترك لروسيا القيصرية شمال إيران وشرقه[١] .

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٠ ، جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٠٠ ، ١٠٢ .

وقاد الأفغاني النضال البطولي ضد الزحف الاستعماري على الشرق ، وضد الإنكليز خاصة ، وأطلق أفكاره الثورية ، وعباراته النارية في آذان الشعب ، وقال : « أنَرْضى ، ونحن المؤمنون ، وقد كانت لنا أصول الكلمة العليا ، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يَرِد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلاً ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته »[1] .

وتثور ثائرة الأفغاني عندما يرى المذلة والانحطاط والاستغلال الذي يقوم به الإنكليز ضد ملايين الهنود ـ من مسلمين وهندوس ، ويغضب لهم ، ويخاطبهم ، ويقول لهم :

« يا أهل الهند ، وعزةِ الحق ، وسرِ العدل ، لو كنتم ، وأنتم تعدون بمئات الملايين ذباباً مع حاميتكم البريطانية ،

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٣٥٦ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٠٣ ، ١٢٤ .

ومن استخدمتهم من أبنائكم ، فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم ، واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف ، لو كنتم وأنتم مئات الملايين ، كما قلت : ذباباً ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم « غلا دستون » وَقْراً ، ولو كنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله ، فجعل كلا منكم سلحفة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القعر ، وعدتم إلى الهند أحراراً »[1] .

وتظهر دعوة السيد جمال الدين الأفغاني للتحرر في كل بلد حلَّ فيه ، وخاصة في مصر التي أقام فيها ثماني سنوات ، وقام فيها بدعوة التجديد الديني ، والتحرر العقلي ، والاستقلال السياسي ، وهاجم ضد خصوم الثورة ، وكون أول أحزاب الشرق الوطنية (الحزب الوطني الحر) السري الذي رفع شعار « مصر للمصريين » وكان السيد الأفغاني أول

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٥١٧ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٠٤ .

من أطلق هذا الشعار ، للتحرر من استبداد الحكم الفردي ، والنفود الأجنبي ، حتى بلغ أعضاء هذا الحزب من القادة والصفوة (٣٠٠) عضو ، ودرّب السيد جمال الدين المثقفين على الكتابة والخطابة ، وقاد عملية التكوين الحر لجيل من كتاب المقالات في الصحف ، والخطب ، وسعى لإلهاب الشعب بالثورة ، وشحن قلوب الناس ضد الأوضاع الجائرة الظالمة ، وكان يوقظ فيهم روح الحمية والإسلام والأنفة ضد الإنكليز المستعمرين ، وكانت مقالاته هي المحرك الفكري لثورة عرابي باشا ، فيقول :

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون ، بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط ، وأنتم في غفلة معرضون ، فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر ، فتثير فيكم النخوة والحمية ، لما

رضيتم بهذا الذل ، والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء ، وأنتم ضاحكون . . . ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لاحس لكم ، ولا صوت ، انظروا أهرام مصر . . . شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم ،

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء . . . »[1] .

ويقول السيد جمال الدين الأفغاني أيضاً : « إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم الأشياء : الحرية والاستقلال ، وإن هذا الشرق ، وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهب من رقاده ، ويُمزق ، هو وأبناؤه ، لباس الخوف والذل ، فيأخذ في إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها ،

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٤٦/١ ـ ٤٧ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص١٠٣ ، زعماء الإصلاح ص٧٢ .

المستنكرة لاستعبادها »[1] .

واعتبر الناس جميعاً أن جمال الدين الأفغاني هو أبو الثورة العرابية ، لأنه كان كذلك من الوجهة الروحية والفكرية ، وكان كثير من أقطابها من تلاميذه ومريده ، وكان له الفضل الأكبر في ظهور بذور هذه الثورة في عهد الخديوي اسماعيل[2] ، حتى وصفه الدكتور محمد عمارة بأنه « إعصار يتصدى لعاصفة الاستعمار »[3] ، وطالب السيد جمال الدين الأفغاني أن يحكم بلاد المسلمين رجل قوي عادل[4] .

وكان شعار مجلة السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وهي « العروة الوثقى » كان شعارها يشير إلى

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٩٥ ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ص٥٣ طبعة دار الفكر .

(٢) جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص٤٧ ، زعماء الإصلاح ص٧٣ .

(٣) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٩٥ .

(٤) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٩٨ ، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٤٧٧ ، خاطرات جمال الدين ص٩٠ .

ذلك ويؤكده ، وهو : « ايقاظ الشعوب الإسلامية ، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة ، ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوربي ، والجهاد في سبيل الحرية والاستقلال »[1] .

وكانت دعوة السيد جمال الدين موجهة إلى جميع الشرقيين ، مسلمين وغير مسلمين ، وفي ذلك يقول السيد جمال الدين في العدد الثامن من « العروة الوثقى » : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ، ومدافعتها عن حقوقهم ، تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم من أوطانهم ويتفق معهم في مصالح بلادهم ، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا شأننا ، ولا ما يخيل إليه ، ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا ، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً ، من تطاول الأجانب عليهم ، والإفساد في بلادهم ، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص٥٩ ، تاريخ الأستاذ الإمام ٢/٢١٥ .

الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون ، وأذلوا أهلها أجمعين ، واستأثروا بجميع خيراتها »[1] .

هكذا أعلن السيد جمال الدين سخطه على الاستعمار ، ودعا إلى مقاومته والتحرر منه ، فكان يصف أعمال المستعمرين ، ويبين معنى الاستعمار ، وأسبابه ، ويحدّد معناه الحقيقي ، ويكشف أهدافه الخبيثة والسيئة ، ويميط اللثام عن وسائله الدنيئة والخفية ، والتستر وراء الشعارات الفارغة ، والكلمات الجوفاء ، ويصف الاستعمار بأنه من أسماء الأضداد ، فيقول السيد :

« إن هذا الاستعمار لغة ، واصطلاحاً ، مصدراً واشتقاقا ، لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد ، وهو أقرب إلى الخراب ، والتخريب ، وإلى الاسترقاق ، والاستعباد ، منه إلى العمار والعمران. . . » ، ويقول : « لقد برز الأوربيون في ضروب السياسة لتوسيع ممالكهم ، وتفننوا في إيجاد الوسائل المؤدية لذلك ، وكان أسبقهم في الدهاء ، وأكثرهم في الاستيلاء « الإنكليز » ، وهم في مقدمة من رأى

---

(١) جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص٦٤ .

من دول الغرب أن فتح البلاد ، وتملكها بالجيوش ، والكفاح والقتال من مزعجات الأمور ، وأن الدخول من باب المكر ، واللين ، والخديعة ، والختل أوفر ، وأسهل ، وأقرب ، وأفعل ، فاعتمدت هذا الأخير ، ونالت به نجاحاً ، وتركت الأول ، وهو الحرب والقتال ، وفتح البلاد غلباً وقهراً ، ورجعت للثاني وألبسته من الأسماء طيلساناً لين الملمس ، هين الملبس ، ودعته بالاستعمار ، ودعت ما يؤخذ من الممالك مستعمرات ، وجرت في هذا المضمار فكانت المجلي ، وحازت قصب السبق ، وتبعها غيرها من الدول فكانوا السكيت »[1] .

---

(١) المجلي : هو الفرس السابق في الميدان ، والسكيت : أحط مراتبها جرياً ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٦٦ ، ويصف السيد جمال الدين كلا من الإنكليزي والعربي في عصره ، فيقول عن الإنكليزي : « إنه قليل الذكاء ، عظيم الثبات ، كثير الطمع والجشع ، عنيد ، صبور ، متكبر » ، ويقول عن العربي أو الشرقي : « إنه كثير الذكاء ، عديم الثبات ، قنوع ، جزوع ، قليل الصبر ، متواضع ، يثبت الإنكليزي حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره ، والشرقي لا يثبت على الصواب ، ولا على طلب =

ولم يقف السيد جمال الدين الأفغاني عند التنديد والنكير بالمستعمر ، ولكنه كان عملياً في تفكيره ونشاطه ، وأسس أول تنظيم سياسي في الشرق ، وهو « الحزب الوطني الحر » السري في مصر ، ثم أسس تنظيم « جمعية العروة الوثقى » السياسية السرية ، والذي بلغ درجة عالية من الدقة والتنظيم السياسي بكل ما في الكلمة من معنى سنة ١٨٨٣م ، وسبق تكوين الجمعية الغابية سنة ١٨٨٤م ، وقبل تنظيم حزب العمال المستقل بإنكلترا سنة ١٨٩٣م ، وقبل تأسيس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي سنة ١٨٩٦م الذي أقر نظامه الداخلي في مؤتمره الثاني سنة ١٩٠٣م ، وكانت « جمعية العروة الوثقى » السرية تنظيماً سياسياً وفكرياً ، قاده أبرز أعلام الشرق في القرن الماضي ، وفيلسوف يقظته السياسية والفكرية السيد جمال الدين الأفغاني[1] ، وهو أول

حقه ، فيفوز الأول بخير النتائج بفضيلة الثبات ، ويخسر الثاني حقه برذيلة التلون وعدم الصبر » ، الرافعي ص١٧٥ ـ ١٧٦ .

(١) جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، وانظر : تفصيل « جمعية العروة الوثقى » في تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٢٨٣ .

تنظيم إسلامي سياسي معاصر ، يحمل الفكر الإسلامي ، والدعوة إلى تطبيق الإسلام ، والتحرر من الاستعمار ، والدعوة إلى الوحدة .

ويعالج السيد جمال الدين الأفغاني الأحزاب السياسية في الشرق بما يمثل عصره وحتى اليوم ، فيقول : « الأحزاب السياسية في الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء ، نحسن نحن الشرقيون تأليف الأحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر لتركها ، والكل لنا أعداء ، والسبب العامل في ذلك عدم التكافؤ في القوى بين الأمة وأحزابها السياسية. . . ، فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب ، سعادة ورفاها ، وحرية واستقلالاً ومساواة على أوسع شكل. . . ، فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الأمر ، ظهرت هناك في رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية. . . ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، فنضطر إلى ترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقده ، والكل له أعداء »[1] .

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص٤٩ طبع دار الفكر ،

وكان السيد جمال الدين يرى في الطرف المقابل للتحرر من الاستعمار ، وإنشاء الأحزاب السياسية : الدعوة إلى الشورى ، والمطالبة بها من الحكام أنفسهم ، فطلب ذلك من الخديوي توفيق باشا ، فقال له : « وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة . . . يكون ذلك أثبت لعرشكم ، وأدوم لسلطانكم » ولكن الخديوي توفيق باشا كان غير راض ، واسرَّ في نفسه أن يبطش بجمال الدين ، ونفاه سراً إلى الهند[1] .

وكان السيد جمال الدين شديد الإيمان بالحكم النيابي ، وضرورة تمثيل القوة النيابية للشعب ، وصدورها من أحشاء الجماهير ، فيقول :

« إن القوة النيابية لأي أمة لايكون لها قيمة حقيقية إلا إذا

= وانظر : جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٧٦ ، جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٣٣ .

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص٤٦ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص٦٤ ، جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص٤٥ ، زعماء الإصلاح ص٧٥ .

نبعت من نفس الأمة ، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير ، أو قوة أجنبية محركة له ، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه »[1] .

وهذا ما عبّر عنه أمير الشعراء شوقي ، فيما بعد بقوله :

الدينُ يُسْرٌ ، والخلافةُ بَيْعة والأمرُ شورَى ، والحقوُق قضاء

لذلك يحث السيد جمال الدين ، ومن بعده الشيخ محمد عبده ، على الشورى ، والحكم النيابي بدلاً من الحكم المطلق ، ويقول السيد جمال الدين : « أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابي الشوري ، فهو أيسر مطلباً ، وأقرب منالاً (أي بعد الاستقلال والحرية) . . . ، ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكّم عقله ، فأرشده إلى استبدال مطلق الملك ، بالملك الشوري ، فاستراح وأراح . . . » ويقول : « لا يسلم على الغالب ، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الأمر ، كلما صادمه

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص٤٧٣ ، وانظر : جمال الدين الأفغاني ، عمارة ص٢٢١ .

مجلس الأمة بإرادته ، أو غلبه على هواه »[1] .

وهكذا يعيش السيد جمال الدين الأفغاني الواقع والحياة ، ويدرك أبعاد المرض والداء ، ويشخص الدواء ، ويرسم المنهج ، ويخطط للمستقبل ، ويرشد للأقوم ، وآراؤه كثيرة ، ونكتفي بهذا القدر ليكون تذكيراً ومثالاً لغيره ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وللسيد موقف مشرف من نظرته للسلف ، ومقارنة الخلف به ، والحث على السير على المنهج القويم[2] .

الخاتمة :

عاش السيد جمال الدين الأفغاني حياة حافلة بالجهاد والاجتهاد ، والدعوة والكفاح ، وتعرض لجميع ما يتعلق بالإسلام ، وما يهم المسلمين في واقعهم ، ونذر نفسه لذلك ، ولم يشغله عن هذه الوظيفة زوجة ولا ولد ، فلم يتزوج أصلاً ، ولم يشغله وطن ، فكان وطنه الإسلام ودياره

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ص٥٣ طبعة دار الفكر .
(٢) جمال الدين الأفغاني ، الرافعي ص١٧٢ ـ ١٧٤ .

خاصة ، والعالم عامة ، ولا يليهه تجارة ولا مال ، فلم يملك من الدنيا شيئاً ، وكان زاهداً بها ، وكان يكتفي بملابسه التي يلبسها ، ودريهمات ولقيمات ، وكان منصرفاً طوال حياته المديدة ، وإن لم يعمر كثيراً ، كان منصرفاً إلى الفكر والرأي والاجتهاد والعمل ، ولم يكن منزوياً في الحياة ، ولا قابعاً في مسجد أو زاوية أو تكية ، بل كان دائم الكفاح والنضال والنزال ، ولم يهدأ له بال ، ولم يستقر في بلد واحد إلا لبضع سنوات فقط في مصر والأستانة ، وطاف البلاد الإسلامية ليتعرف على أمراضها ومشاكلها ، وما تعانيه من متاعب خاصة وعامة ، وتصدى في كل بلد إلى تشخيص الأمراض الخاصة فيه ، وانبرى بلسانه وقلمه وجسمه لوصف الدواء ، وإيجاد الحل المناسب ومعالجة المشكلات .

ويمكننا تلخيص ما سبق بأن السيد جمال الدين الأفغاني كان مجتهداً ، ويدعو لفتح باب الاجتهاد ، ويندد بسدِّ باب الاجتهاد ، ويدعو إلى الوحدة الإسلامية بين الشعوب والجامعة الإسلامية بين الدول والحكومات ، ويسعى للتقريب بين المذاهب ، ونبذ التعصب المذهبي ، واجتهد في تحريم الربا في جانب واحد خلافاً لجماهير العلماء والنصوص

الشرعية ، وكان يدعو إلى اشتراكية الإسلام ، ويفند الاشتراكية الغربية ، ويزاوج بين العروبة والإسلام ، ويدعو للتحرر من الاستعمار والاحتلال مع حرصه على ممارسة التنظيم السياسي ، والدعوة إلى الشورى والحكم النيابي .

ولكن اجتهادات السيد جمال الدين كثيرة ، وآراؤه عديدة ، وكتبه متناثرة ، ويمكن الاستزادة منها في « الأعمال الكاملة » التي جمعها الدكتور محمد عمارة ، مع الدراسة والتحقيق ، وكتاب « الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » التي جمعها أيضاً الدكتور محمد عمارة ، وكتاب « خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني » تأليف محمد باشا المخزومي ، وكتاب « تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » تأليف السيد محمد رشيد رضا ، وجميع المراجع التي كتبت عن زعماء الاصلاح في العصر الحاضر ، وعن تلاميذه ، وخاصة الشيخ محمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، كما كتب عن السيد جمال الدين الأفغاني أكثر من ثلاثين كتابا في ترجمة حياته ، وسيرته الشخصية ، ودراسة كتبه وآرائه النيرة ، وجمع أفكاره مما لم يحظ به عالم آخر ، وليس ذلك بغريب ، فهو باعث نهضة الشرق ، وموقظ الشرق ، وحكيم

الشرق ، وفيلسوف الإسلام ، وأكبر المجددين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، أو القرن التاسع عشر الميلادي ، وهو أبرز المصلحين الدينيين ، ونافخ روح الثورة للتحرر ، والعودة إلى الدين الحق ، والشريعة السمحاء ، فكان زعيماً سياسياً ودينياً ، ومفكراً ، ومنظراً ، جمع بين الزعامات الروحية والفكرية والقومية والسياسية ، ولا يزال صوته يجلجل في الأصقاع ، وعلى الأسماء ، ويهدر في أصداء الدهر ، وتتردد حِكَمه على الألسنة والأقلام[1] .

---

(١) يقول الأستاذ أحمد أمين عند زيارة قبره باستانبول : « رقد هنا محيي النفوس ، ومحرر العقول ، ومحرك القلوب ، وباعث الشعوب ، ومزلزل العروش ، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته ، وتخشى من لسانه وسطوته ، والدول ذات الجنود والبنود (الرايات) تخاف من حركته ، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفساً بحريته ، هنا خمد من كان يشعل النار حيث كان ، في الأفغان ، في مصر ، في فارس ، في باريس ، في لندرة ، في الأستانة ، هنا باذر بذور الثورة العرابية ، ومؤجج النفوس للثورة الفارسية ، ومحرك العالم الإسلامي كله لمناهضة الحكومات الأجنبية ، والمطالبة بالإصلاحات الاجتماعية ، حارب الحكم الاستبدادي في مصر . . . وفارس ، وإنكلترا ، وباريس ، وحارب الجهل والأمية والذلة =

ونكتفي بهذه النبذة عن السيد جمال الدين الأفغاني ، للتذكير بما وراءها ، والتنويه بأبعادها ، والحث على الاستفادة مما قدمه في جهده وجهاده ، والدعوة إلى نشر كتبه وأفكاره وآرائه ليسترشد بها الدعاة والمصلحون .

رحم الله السيد جمال الدين الأفغاني رحمة واسعة ، وأسبغ عليه شآبيب رحمته ، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، ونفعنا بعلمه وآرائه وفكره ، وعوض المسلمين خيراً ، والحمد الله رب العالمين .

* * *

= في الشرق ، والجاسوسية والنفاق في الأستانة ، ولم ينتصر عليه شيء إلا الموت ، لقد أجللناه وأعظمناه ، والتهبت نفوسها لذكراه ، فكيف كان محضره ومرآه ؟ رحمه الله » (زعماء الإصلاح ص١١٥ ـ ١١٦ .

أهم مصادر البحث ومراجعه

١ـ الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ـ ١٩١٤م ، علي المحافظة ، طبع الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ ١٩٨٧م .

٢ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، للدكتور محمد حسين ، نشر مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، بمصر ـ ١٩٥٤م .

٣ـ أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار ، للدكتور علي أحمد السالوس ، دار الثقافة ، قطر ، ١٩٩٠م .

٤ـ الإحكام في أصول الأحكام ، علي بن أبي علي الآمدي (٦٣١ هـ) مؤسسة الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٧م .

٥ـ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م ، والطبعة الثانية ـ بيروت ـ ١٩٧٠م ، ثمّ طبعة ١٩٧٩م .

٦ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة ، طبعة بيروت ـ ١٩٧٢م .

٧ـ التعريفات ، للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (٨١٦ هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨م .

٨ـ الجامع في أصول الربا ، للدكتور رفيق يونس المصري ، دار القلم ـ دمشق ـ ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١م .

٩ـ جمال الدين الأسد آبادي ، المعروف بالأفغاني ، التعريف به وبآثاره ، ميرزا لطف الله خان الأسد آبادي ، ترجمة وتعليق عبد المنعم محمد حسنين ، بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٧٣م .
١٠ـ جمال الدين الأفغاني ، باعث نهضة الشرق ، للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي ـ دار الكاتب العربي ، القاهرة ـ ١٩٦١م ، سلسلة أعلام العرب رقم ٦١ .
١١ـ جمال الدين الأفغاني ، ذكريات وأحاديث ، عبد القادر المغربي ، طبع دار المعارف القاهرة ١٩٤٨م + طبعة ثانية ، القاهرة دار المعارف (١٢٧ صفحة) ، د . ت .
١٢ـ جمال الدين الأفغاني ، تاريخه ورسالته ومبادئه ، الأستاذ محمود أبو رية ، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ـ ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م .
١٣ـ جمال الدين الأفغاني ، موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ، للدكتور محمدعمارة ـ دار الوحدة ـ بيروت ـ ١٩٨٤م .
١٤ـ جمال الدين الأفغاني ، حياته وفلسفته ، للدكتور محمود قاسم ، نشر مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ د . ت .
١٥ـ خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني ، محمد باشا المخزومي ، الطبعة الأولى ـ بيروت + طبعة دار الفكر الحديث ، لبنان ، بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م .
١٦ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، للأستاذ أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٩م .

المحتوى

مقدمة ٥
الفصل الأول : حياة السيد جمال الدين الأفغاني ١١
الفصل الثاني : الاجتهاد ومكانته في الإسلام ١٨
الفصل الثالث : جمال الدين الأفغاني مجتهداً ٢٥
منهجه في الاجتهاد ٣٣
الفصل الرابع : الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ٦٥
الفصل الخامس : التقريب بين المذاهب ٧٦
الفصل السادس : تحريم الربا والفائدة ٨٧
الفصل السابع : موقف الأفغاني من الاشتراكية ٩٣
١ـ موقفه من الاشتراكية الغربية ٩٥
٢ـ الدعوة إلى الاشتراكية الإسلامية ٩٨
الجمع بين الموقفين ١٠٥
الفصل الثامن : العروبة والإسلام ١٠٩

الفصل التاسع : الدعوة للتحرر من الاستعباد
والاستعمار والاحتلال ١٢٢
الخاتمة ١٢٣
أهم المصادر والمراجع ١٤١
المحتوى ١٤٥

* * *